أيمن توفيق

المتاهة

رواية

٢٠١٤

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٤

رقم الإيداع في دار الكتب المصرية
(٢٠١٤/٣/١١٩٩)
ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٨٥-٠٥-١ **(ردمك)**

تأليف

أيمن توفيق عبد العزيز منصور
روائي من مصر
Ayman_tawfik٨٥@yahoo.com

الناشر



ش . الملكة رانيا ، عمارة البيجاوي ط٥ ، بجانب صحيفة «الرأي»
هاتف : ٧٧٦٧٢٤٣٦٦ (٠٠٩٦٢) ص .ب ٧١٣٦٨٠ عمان ١١١٧١ الأردن
Alaan .publish@gmail .com

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٤

إلى أصحاب الدماء الطاهرة التي أُريقت وتُراق

لإرواء شجرة الحرية

"دمانا يا طاهرة وزكيّة

زلزلي عرش الطُّغاة

وارسمي بسمة وطن

واصنعي طوق النجاة

واغزلي بكرة الأمل

ينتهي عهد البُغاة"

بمثابة تقديم

سليم النجار

أعادتني رواية "المتاهة" للكاتب المصري أيمن توفيق، إلى نصوص أخرى ماثلة في الذاكرة تتشابه معه في السياقات والثيمات. فثمة الروائي/ التجربة، وثمة النص/ الحدث.. وثمة وحدة الحال التي تجعل من نصٍ مضت على صدوره عقودٌ يُحْدِث ما يُحْدثه من جدلٍ وتقبُّل وتأويل في ظلّ العراك مع المنفى.

هكذا هو الأمر مع أيمن توفيق في روايته الأولى "المتاهة" التي عبّرت عن ولع إنساني "فائق" لدى الروائي، بالبحث عن الفرادة والخروج عن السائد.. والمغامرة أيضاً. ولِمَ لا؟

هذه الرواية تضعنا أمام مرايا مختلفة، تسعى كل منها لتشكّل جهة من جهات النص، وتضيء عتماتها وصولاً إلى المبنى الذي يتسق مع ما يبتغيه المعنى.

لقد تفاعلتُ مع هذا النص الذي ذكّرني بكلمات صديقي الشاعر سميح مسعود الذي كان يستفزني بحديثه عن "حيفا" وقد عاد لتوه من زيارة إليها، وهي كلمات عن الغربة والاغتراب والحنين عمّقت لدي مجموعة من الأفكار التي رأيتُني أقرأها في تجربة الروائي أيمن توفيق، خصوصاً أن الروائي هنا يؤمن أن الرواية الجيدة هي التي تحمل رسالتها بثقة، وهي التي تنتج عن حدسٍ خاص وهاجسِ تجاوز. إنها الرواية التي تُخْلص لنفسها، وتقود قارئها إلى خلاصٍ من نوع ما.

كل ذلك يُبرز بنية الوعي المتحوّل لدى الروائي أيمن توفيق، التي تتأسس على تعدُّد الأشكال في الفكرة الواحدة أو في النص

الواحد. ولعل ميزة هذا النص تكمن في كونه يأتي في مرحلة من تجربة الروائي يمكن دعوتها: "مرحلة الانصهار والعلوّ": انصهار الذات الراوية في اللغة وتركيباتها المتغيرة وتنويعاتها المحتمَلة؛ والعلوّ بسيطرة الروائي على عناصر نصه بحميمية لإحداث انطلاقة تقوم على التكنيك اللغوي والوجع الإنساني، وصولاً إلى أفق مأمول، ولو كان هذا عبر الاستعانة بالأسطورة، وتعالقاتها مع ما هو واقعي. إن هذا المنحى من شأنه الخروج على النموذج المؤطَّر الذي كثيراً ما استباح حرية الذات وعرقلَ انسياباتها المقترَحة في الكون الرحب..

إنّ نظرةً فاحصة لمراحل الكتابة أو تشكُّل النص في "المتاهة"، تحيل القارئ إلى أمرين: الخروج على النموذج، بل "قتله" من خلال توليدات فنية وإنسانية متتالية عبر حركية الشكل؛ وصياغة الرواية وفق الشكل الخاص الذي ارتأته الرواية نفسها لذاتها. ففي هذا النص تتجلى روح المغامرة والتجاوز وصولاً إلى الواقع الأغنى، الواقع الآخر الذي يتيح "الكشوف" الروائية، فتتشكل الرؤيا في ظل جدلٍ يستحدثه الروائي بين المرايا المختلفة في جوانية النص.

أيمن توفيق في روايته "المتاهة"، يفتح الشهية لطرح أسئلة قديمة متجددة، وهو إذ يقف على عتبة الانعتاق من ربقة الرواية التقليدية، فإنما يقف بعينين تنظران إلى الوراء، إلى الأطلال وهو يعاين حالة عربية بالغة القسوة، ولحظة راهنة في تاريخ الأمة تبدو فيها مسلوبةً ومنهوبة وحائرة الخُطا أكثر من أي وقت مضى.

سؤال الرواية هو سؤال الواقع، وسؤال الشكل الروائي هو سؤال اللحظة، وهو الطريق التي ارتآها أيمن توفيق هنا لقول خصوصيته الروائية في مصر، كما يتضح جلياً من خلال "المتاهة" التي يحدونا الأمل أن نجتازها عمّا قريب.

وللإسكندرية تحديداً، ما يُسْرَد ويُباح في زمن المتاهة.

السـراب

أسير وحيداً في أحد شوارع العاصمة الأردنيّة، أترنّح في خطواتي؛ لم أكن مخموراً، ولكن ما الذي أتوقعه بعد اثنتي عشرة ساعة من العمل اليدويّ الشاق.

أخرج في السابعة صباحاً ولا أعود إلا مع دقّات التاسعة مساءً. أعود منهكاً متهالكاً من شدة الإرهاق، لم يكن أمامي خيار آخر سوى ذلك العمل البدنيّ الشاق؛ فمن ناحية يصعب الحصول على عمل، ومن ناحية أخرى؛ كلما ازدادت صعوبة العمل، قابلها زيادة في العائد المادي.

أتناول عشائي ثم لا ألبث أن ألوذ بفراشي؛ لم يكن الإرهاق وحده هو ما يدفعني للانفراد بنفسي، والانعزال بها بعيداً عن الجميع، فغالباً لا أسلّم جفنيّ للنوم إلا بعد انتصاف الليل بساعة أو اثنتين؛ كانت المسافات بيني وبين من أعيش برفقتهم متباعدة بشكل كبير، رغم صلة القرابة التي تربطني ببعضهم. الصلة الوحيدة التي تجمع بيننا أننا نعيش في منزل واحد، نتشارك إيجاره ومصاريف معيشته لتحقيق أكبر قدر من الادخار مع ارتفاع تكاليف المعيشة؛ ناهيك عن مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة.

كان الواحد منّا يعيش في عالمه الخاص، بعيدًا عن الآخرين، فكانت عوالمنا متباعدة، أو بالأحرى كان عالمي؛ القراءة هي تسليتي الوحيدة، أقضي فيها تلك الساعات التي أختلي فيها بنفسي؛ كان الكتاب

هو صديقي الوحيد، أتناوله ولا أتركه إلا بعد أن يغلبني النعاس، على أمل لقاء يجمعنا في اليوم التالي. وهكذا، مرّت أيامي متشابهة مملّة رتيبة؛ ما يحدث اليوم يحدث غداً، وهو، أيضاً، الحدث نفسه في الأسبوع أو الشهر القادم.

كنت أسير وحيداً أتحسّس طريقي في ظلام الشارع، بينما روحي تحلّق بعيداً مع من تركتهم خلفي، مع سفري قبل أشهر. رنّ هاتفي النقال. لم أنتبه إليه في بادئ الأمر، لم أستطع تمييز رنينه وسط تلك الضوضاء التي يعجّ بها الشارع، إنه الوقت الذي تغلق فيه معظم المحالّ أبوابها؛ حيث أزيز الأبواب الحديدية وقت الإغلاق هو الصوت المسيطر على الشارع.

كان المتّصل ابن خالتي، ومن سواه يمكن أن يعرف رقم هاتفي الخلوي، فلم يمرّ سوى يوم واحد على اقتنائي إياه. رغم أهميته، وما يجلبه من منافع، إلا إنني لم أحبذه يوماً، فكثيراً ما يقطع عليك خلوتك، خاصة في تلك اللحظات التي تختلي فيها بنفسك بعيداً عن الجميع، لكنك تفاجأ به يصلصل صليلاً متواصلاً، ولا يكون أمامك سوى الإجابة والتواصل مع ذلك العالم الذي تحاول أن تهرب منه ولو للحظات. ولكن، يبدو أن ذلك الهاجس لم يكن أكثر من مجرد سبب واهي، حُجّة أحتجّ بها على نفسي، فالسبب الحقيقي الذي أخفيته، ورفضت الاعتراف به، هو خوفي من أن يصبح الهاتف الخلوي مطلباً مادياً جديداً أُجبَر على التعامل معه، لذلك قرّرت الاستغناء عنه بدلاً من أن يصبح عبئًا آخر يضاف لأعبائي الكثيرة.

«اتصل بي صديقك محمد إبراهيم من مصر، وهو يطلب منك الاتصال به لأمر مهم».

كان ذلك ما أبلغني إياه في اتصاله.

محمد صديقي منذ سنوات كثيرة تتخطى الثلاثة عشر عاماً، تشاركنا خلالها الأفراح والأحزان، وتشاطرنا الآمال والأحلام، وما زلنا على اتصال، حتى وإن تباعدت فتراته بعد سفري للعمل في المملكة الأردنية.

محمد هو الابن الثالث من حيث الترتيب بين أشقائه الأربعة، والده موظف بسيط في إحدى الإدارات الحكومية التابعة لمصلحة البريد، وأمه ربة منزل تساعد والده في العناية بهذه الأسرة الصغيرة وزراعة تلك القراريط الخمسة عشر التي تساهم بالجزء الأكبر من دخْلهم، خاصة وأن راتب والده لم يتجاوز المائتي جنيه.

إنسان نشيط، لامع الفكر، حاد الذكاء، شديد الاجتهاد، ربما لأن الاجتهاد هو وسيلته الوحيدة لتحقيق ما يحلم به. بدأت معرفتي به بصداقتي لشقيقه الأصغر زميل دراستي، حينما انتقلوا إلى قريتنا التي يسكنها الكثير من أقربائهم، كان ذلك في الإجازة النهائية للسنة الأولى من المرحلة الإعدادية. في البداية،كان دائماً يضجرني بنصحه المستمر لي ولشقيقه الأصغر، وممارسة دور الشقيق الأكبر كثير الخبرات بحكم فارق العمر بيننا وبينه، في تلك الفترة كنت متمرداً على كل شيء، كنت كبيراً من وجهة نظري بالقدر الكافي الذي يسمح لي بمعرفة صالحي، بغضّ النظر عن نصائح الجميع، لكن ذلك الضجر سرعان ما تحوّل إلى صداقة عميقة ازدادت روابطها وتعمّقت أكثر مع مرور الوقت، خاصة

مع ذلك التشابه الكبير فيما بيننا، لكنّ الولادة الحقيقية لصداقتنا كانت حينما خرجت من رحم صداقتي لشقيقه الأصغر، مع التحاق ذلك الشقيق بالتعليم الثانوي الفني، بينما باعدني حلم الالتحاق بالجامعة وراودتني أحلامي، فقررت الالتحاق بالتعليم الثانوي العام. في تلك الفترة، بدأت صداقتنا تقوى وتزدهر، وبدأت المسافات بيننا في التناقص رغم تلك السنوات الثلاث التي تفصل بين أعمارنا، ناهيك عن الفوارق الدراسية؛ مع دراسته العلميّة وتخصّصه في العلوم الزراعية، الأمر الذي كان على النقيض من دراستي الأدبية بعد ذلك، في كلية الآداب، تلك التي لم يلقيني في أحضانها سوى معدّلي الدراسي في المرحلة الثانوية، غير مدرك لما تعنيه، أو تؤهّل له من وظائف، وهو الأمر الذي ربما ما زلت أجهله إلى الآن، ولكن يبدو أن تلاقينا كان في الطموح والغاية التي يرغب كلانا في إنجازها في حياته، ناهيك عن واقع اجتماعي متشابه إلى حد كبير، وآمال وأحلام لا نملك غيرها. ساعات طوال رسمنا فيها خطانا للمستقبل على مر سنوات، أحلام وآمال كثيرة ذهبت جميعها أدراج الرياح، فتفوقه الدراسي لم يُحدِث في حياته ذلك الفارق الذي رغب فيه. في البداية عوّل على درجة البكالوريوس لتغيير مسار حياته، ولكن ما جدواها رغم تفوّقه، مع وجود عشرات الأوائل من الحاصلين على الدرجة العلمية نفسها؟ ظلّ يحلم.. لم يفارقه الأمل، فقرر الحصول على درجة الماجستير، وكان عليه بطبيعة الحال أن يتحمل سخرية البعض واشفاق البعض الآخر مما يرونه، على اعتبار أنه يهدر وقته فيما لا طائل منه، ناهيك عن حقد بعض رفاقه ممن غاروا من تفوّقه، لكن تعويله، هذه المرة، على درجة الماجستير لم يُحدِث أيضاً ذلك الفارق

الذي رغب فيه، ليكتشف في نهاية الأمر أن تفوّقه أو شهاداته العلمية ليست هي العامل المطلوب لتغيّر مسار حياته، واكتشف أن (الواسطة أو المحسوبية) هي كل ما يحتاج إليه للحصول على ذلك المستقبل الذى يحلم به، وحسب مكانة الموصي تكون الوظيفة، ولكن من أين له بأقارب من أمثال هؤلاء؟ أو من أين له بتلك الآلاف التي تُدفع ثمناً للحصول على مثل تلك التوصية؟

عمل وحيد تمكّن من الحصول عليه في النهاية. كان ذلك في إحدى الشركات الزراعية في واحدة من القرى الصحراوية الجديدة، وذلك بتوصية من أحد زملائه. عملٌ لا يتناسب مع درجة الماجستير التي حصل عليها، لكن مكّنه من الإنفاق على أسرته. خمسة أشهر هي أقصى مدة أمكنه أن يقضيها في تلك الوظيفة.

ليلة وحيدة يقضيها في أحضان عروسه في نهاية كل أسبوع. يأتي في المساء، ويتسلل من فراشه مع الساعات الأولى من صباح اليوم التالي ليذهب إلى عمله، لتنتظر عروسه -التي لم يمرّ على زواجها بضعة أشهر- سبعة أيام وست ليالٍ قبل أن يعود إليها مرة أخرى. وشيئاً فشيئاً بدأت المشكلات تتسلل إلى ذلك البيت الناشئ، والحق كل الحق لزوجته في الامتعاض وعدم الرضى عن تلك الحياة. لكنها لم تعلم أنها ليست وحدها من يعاني من قسوة الأمر، هو أيضاً كان يعاني من الشيء نفسه، ولم يكن أمامه خيار سوى ترك ذلك العمل، والبدء في البحث عن عمل جديد غالباً ما ينتهي بتركه في النهاية والبدء في البحث عن آخر.

وشيئاً فشيئاً بدأت أحلامه في التلاشي، وأخذ طموحه في الانهيار بعد أن خبت جذوة الأمل وانطفأ نورها بداخله، وبدأ يحيا تلك الحياة التقليدية التي يعيشها معظم البشر، رحلة كدّ دائم للحصول على أقل متطلبات الحياة.

بينما لم يبقَ من أحلامي شيء، وأضحى بكالوريوس الآداب الذى حصلت عليه مجرّد حبر على ورق داخل إطار خشبيّ معلّق فوق أحد جدران المنزل، وبات تطلعي الوحيد لتلك الحياة المملّة الرتيبة التي يعيشها الجميع هو الهاجس الذي طالما هربت منه؛ الحياة التي يعيشها معظم البشر، فمعظمهم مجرّد تروس في آلة البشرية؛ تزاوُج، تناسُل، تربية أبناء، مهمّتهم الوحيدة هي الحفاظ على استمرارية البشرية، لتنتهي رحلتنا في الحياة بوصول أبنائنا إلى برّ الأمان، وهو تلك الحياة المملّة الرتيبة التي عشناها من قبل للحفاظ على الحدّ الأدنى من متطلبات الحياة، لننتظر بعدها شبح الموت، وتبقى ذكرانا مجرّد ترحُّمات على أرواحنا كلما تم تذكُّرنا، بشكل عابر، سرعان ما تخبو مع الوقت، دون أن يساهم أيّ منّا بهدف واضح في نهضة وتقدم البشرية.

إنه الهاجس الذي طالما هربت منه. لا أريد أن أصبح مجرد ترس في آلة البشرية. لذلك حرّمتُ الحب على نفسي، هربتُ منه، حاربتُهُ، لكنّ معركتي كانت خاسرة. أخيراً، وجدت سفينتي مرساها على شاطئ عينيها السوداوين، وأضحى بريقهما منارتي في ظلمة الحياة. ظهرتْ في حياتي لتدعم الأواصر والصلات بيني وبين الحياة من جديد. حتى إنّ تلك الحياة التي طالما رغبت عنها أضحت هي كل ما أرغب فيه، بعد أن تلاشت أحلامي واحداً تلو الآخر.

ورغم ما أحمله بين جنباتي، لم أجرؤ على مصارحتها بحبي، لم أحاول حتى معرفة مشاعرها تجاهي مكتفياً بما أحمله في داخلي من مشاعر. قد يراني البعض مخطئاً، ولكن كيف وبماذا أصارحها..؟ بحبي؟ وماذا بعد ذلك؟ حتى وإن بادلتني المشاعر نفسها... لا شيء. أنا لا أملك ما أقدّمه لهذا الحب. لا أملك أيّ شيء أبذله في سبيله. واقعٌ مرير، وغدٌ أشدّ مرارة. جنينٌ غير شرعي وجب عليّ أن أتخلّص منه منذ اليوم الأول. ولكن كيف لي أن أئِدَ هذا الحب بداخلي؟ ليته كان بيدي، ولكن، في الوقت نفسه، كيف له أن يحيى في عالم من الخوف يحيط به من كل مكان؟ لا أنكر أنني أردت كثيراً أن أصارحها بما أكنّه لها من مشاعر، أيّاً كانت ردة فعلها، وبغضّ النظر عمّا يحمله لنا الغد بين طيّاته، المهمّ أن أضع حدّاً لمعاناتي، وأن أتخلص من ذلك الحمل الجاثم فوق صدري، لكنني كنت عاجزاً عن فعل ذلك، فما تخلصت من نير حبها، وما صارحتها بما أحمله لها من مشاعر. فجأة دبّ بداخلي الأمل وداعبتني أحلامي من جديد مع ورود ذلك الاتصال، كنتُ أعلم جيداً ما تعنيه تلك المكالمة.

***

أول ما جال بخاطري تلك الليلة، حينما قدم إليّ محمد في ساعة متأخرة من الليل يحمل بين يديه تلك الورقات الخمس، أن نتسلّل بعيداً عن منازل القرية، استجابةً مني لرغبته في الحديث في الهواء الطلق. اجتزنا في طريقنا مجموعة من الشوارع والممارّ الضيقة المتداخلة بعضها ببعض في شكلٍ عنكبوتيّ، قبل أن نعبر ذلك الجسر الخشبيّ الجاثم فوق جسد القناة المائية، والذي يفصل بين منازل القرية التي نسكنها وتلك

الأراضي الزراعية الواقعة إلى الغرب منها. سرنا على تلك الطريق الترابية الممهَّدة الممتدة بين مساكن القرية إلى وسط الحقول. كان البدر مكتملاً مما يسمح لنا برؤية معالم الطريق التي نحفظها عن ظهر قلب، فلطالما خرجنا للتسكع وسط الحقول هرباً من ليالي الصيف الحارة، أو في أوقات ما بعد الظهيرة؛ حينما تنكسر حدّة الشمس قبل أن تميل للغروب.

مسحت عني نسائم الهواء البارد ما كنت أشعر به من وسن، فما يزال الجو رطباً في ذلك الوقت من العام من أواخر شهر أبريل. أكملنا سيرنا وسط الحقول إلى أن وصلنا إلى تلك البقعة التي اعتدنا الجلوس عندها فوق أحد خطوط السكة الحديدية غير المستخدم في الوقت الحاضر. يبدو أنه كان يستخدم في الماضي لنقل الفحم من أجل تشغيل محطة الكهرباء التي تقع قريتنا في منتصف المسافة بينها وبين المدينة، لكن سرعان ما تم إهمال هذا الخط بعدما استخدم الغاز الطبيعي بدلاً من الفحم في توليد الكهرباء، وهنا استخدمه القرويون من أهل قريتنا والقرى المجاورة، ممن تقع ملكياتهم الزراعية إلى جواره، كمرابط للمواشي في أوقات النهار، بينما أصبحت أخشابه التي ترتكز عليها القضبان الحديدية حقاً مستباحاً للجميع، نستخدمها للشواء في موسم نضوج الذرة.

لم نكد نلتقط أنفاسنا، حتى بادرته بالسؤال:

- لا بدّ أنه أمر مهم ذلك الذي يستدعي حديثنا هنا وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

ناولني تلك الورقات الخمس التي طواها بشكل أسطواني قائلاً:

- اعرف بنفسك.

تصفّحتها بنظرة سريعة، لم أفهم منها شيئاً؛كان ما استخلصته منها على ضوء القمر قليلاً، فلم أستطع قراءة شيء من محتواها سوى العنوان الذي كُتب بخط بارز. قلت:

- يبدو أنها أوراق إحدى المنح الدراسية.

فأجاب: «نعم هي كذلك. إنها إحدى منح الوكالة الأميركية للوكالة الدولية بهدف إعادة تكييف وهيكلة بعض الخريجين للتوافق مع أسواق العمل في مصر».

- وهل يمكنني التقدم إليها؟
- نعم، وبكل سهولة، ليس عليك سوى الإجابة عن تلك الأسئلة الستة وإرفاقها بأوراقك. ولكن احذر، رغم بساطة هذه الأسئلة في ظاهرها لكنها عميقة المضمون. أما باقي الشروط فهي تنطبق على كلينا، فكلانا لم يتجاوز الثلاثين، وكل منا يعمل بعيداً عن مؤهله الدراسي تحت وطأة ظروف العمل.

لم أنم مطمئناً كما نمت ليلتها، فقليلة هي تلك الليالي التي تنام فيها على أمل، أيّاً كان هذا الأمل. تحمّست للفكرة. لم أتردّد للحظة واحدة، رغم أنّ المنحه تعادل شهادة الدبلوم الفني. لم تشغلني شهادتي الجامعيه كثيراً، وكذلك صديقي، فما فائدتها إن لم يكن هنالك نفعاً منها، ودبلوم من أميركا يتوافق مع سوق العمل أفضل بكثير من شهادة دكتوراه لا صله لها بسوق العمل. أخيراً، يمكننى تنفس الصعداء. إنها الفرصة

التي انتظرتها كثيراً لأزيل عن أحلامي غبار الواقع الأليم. ربما تكون الأقدار هي من ساقت لي تلك الفرصة في ذلك الوقت بالذات؛ في الفترة التي أغلقت فيها الحياة أبوابها دوني. ظلّ الأمر يراودني أياماً كثيرة ليلاً نهاراً، ووجد بداخلي ذلك اليقين في أنني إذا تقدمت بأوراقي للمنحة، لا بدّ سأكون أحد هؤلاء المحظوظين. لأول وهلة تكوّنت في ذهني هياكل إجابة عن هذه الأسئلة الستة، لكنني تقاعست عن إفراغها على الورق، فتدابير القدر أبت إلا أن تلقي بي فريسة لهواجسي، بعد أن ساقت لي أحد عقود العمل في المملكة الأردنية الهاشمية، الأمر الذي سعيت خلفه لسنوات أربع منذ تخرجي من الجامعة، حينما قررت أن أسافر بعيداً، لأيّ مكان، المهم أن أحصل على الظروف التي تسمح لي بتحقيق طموحي. لم أستطع حسم الأمر بداخلي وبتُّ فريسة لنفسي التي تحدّثني:

«عصفور في اليد خير من ألف على الشجرة، وعقد عمل مضمون أفضل بكثير من منحة دراسية ما زالت في علم الغيب، حتى وإن كانت لأميركا نفسها. صحيح أن عقد العمل لا يضمن لي العمل الذي أرغب فيه، ولكن مع وصولي إلى هناك يمكنني البحث. المهمّ أن أصل أولاً إلى تجارة رائجة، تدرّ على أربابها أرباحاً خيالية، مئات من الشركات الوهمية التي تستقدم أيدٍ عاملة لا حاجة لها بها، لكنها تحمل من ناحيه أخرى ميزة مهمة، فهي تترك المسافر حراً يعمل حيثما شاء، دون أيّ تدخُّل من أحد، ما دام قد سدّد، مسبقاً، آلاف الجنيهات ثمناً لتلك الفرصة، مع ذلك، ورغم ضبابيتها، إلا أن نسبة المخاطرة فيها أقلّ بكثير، ومن يضمن لي أنني سأكون أحد هؤلاء المائة وخمسين مبعوثًا؟ لا بد أن هناك

عشرات، وربما مئات الألوف، ممن تقدموا بأوراقهم مسبقاً، أنا لم أكن يوماً محظوظًا إلى هذه الدرجة».

توالى انصرام الأيام دون أن أحسم الأمر بداخلي، وكاد اليوم الأخير لتقديم الأوراق ينتهي، فلم يبقَ سوى ساعات قلائل على إغلاق باب التقدم للمنحة دون أن أستقرّ على رأي.

كنت في طريق عودتي من وزارة القوى العاملة والهجرة، بعد إحضاري صورة عقد العمل المصدّق من المقر الرئيسي للوزارة في القاهرة. يوم شاق من بدايته، منذ استيقاظي مع ارتفاع نبرات صوت الأذان لصلاة الفجر. اعتقدتُ مخطئًا أنني قد بكّرت بوصولي لمقر الوزارة مع دقات الثامنة صباحاً، لكنني وجدت المئات غيري من الطامحين الطامعين في السفر قد جاءوا هم أيضاً لإحضار صور عقود العمل الخاصة بهم.

تُوزّع العقود بشكل عشوائي. رجل وحيد يقوم بتسليم صور هذه العقود، يجلس تحت مظلة بائسة في الفناء الخلفي لمبنى الوزارة. مرة واحدة ينادي فيها على الأسماء، ومن لا ينتبه عليه أن يأتي في مثل الموعد نفسه من الأسبوع التالي، بينما وقفنا جميعاً تحت أشعة الشمس الحارقة التي اشتد سعيرها بمرور الوقت، في حين يقوم أربعة من رجال الأمن بلباس مدنيّ بالسيطرة على ذلك الجمع الكبير من الناس باستخدام العصي التي تسقط على جسدك لا تدري من أين، أو تلك الشتائم التي يشتد أزيزها بين الحين والآخر.

كنت في طريق عودتي من القاهرة بعدما تسلّمت صورة العقد حينما بدأت تلك المعركة بداخلي في الاشتعال من جديد، لكنها سرعان

ما خبت هذه المرة ولم يبق بداخلي سوى صدى صوت وحيد سيطر على تفكيري: «لن تخسر شيئاً إذا تقدمت بأوراقك للمنحة، ربما يتم اختيارك، ولم لا؟».

وهنا، قرّرتُ مجاراة ذلك الصوت لتجنب أيّ ندم مُستقبَلاً. كانت أوراق المنحة بحوزتي داخل حقيبتي الورقية التي تحمل كل أوراقي، تلك الحقيبة التي كانت شاهدي على ما عانيته في رحلة بحثي داخل أسواق العمل، لذا قررتُ إكمال رحلتي للإسكندرية لتقديم أوراقي في المقر الفرعي للهيئة المانحة هناك. لا أدري لماذا لم أتوجه إلى المقر الرئيسي في القاهرة رغم وجودي فيها؟ ربما لأن معرفتي بشوارع الإسكندرية أفضل بكثير، كما أن بحثي عن مقر الهيئة في القاهرة سيكون أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش، مع ترامي أطرافها، ناهيك عن تلك الفوضى المرورية الشديدة التي ستعوقني بالتأكيد عن الوصول في الوقت المناسب، قبل انتهاء ساعات العمل للموظفين، هذا في حال تمكنت من الوصول.

***

كانت الساعة تقترب من الثانية حينما حطّ «أتوبيس» النقل العام رحاله في آخر محطاته، في منطقة سيدي جابر بالإسكندرية، فسارعتُ بالقفز خارج «الأتوبيس» قبل أن يتوقف بشكل نهائيّ. قطعتُ الشارع المواجه للمحطة مسرعاً نحو مدخل النفق الذي يمرّ أسفل محطة القطار كي أتمكّن من استقلال «الترام». اصطدمتُ بشخص ما في طريقي. اكتفيتُ بالاعتذار له بإشارة من يدي دون أن أتوقف أو ألتفت إليه، ويبدو أنه لم يقبل اعتذاري، ظلَّ سبابه يترامى إلى مسامعي حتى ذاب

صوته وسط تلك الأصوات الكثيرة المنبعثة من كل مكان. حينما خرجت من الجهة الأخرى من النفق، لم يكن أمامي وقت كاف أضيعه في اجتياز الشارع للجهة المقابلة عبر استخدام جسر المشاة، فقررتُ قطع الشارع وإيقاف نهر الطريق المتدفّق بغزارة في الإتجاهين. لم أنتظر بعدها سوى دقيقة أو اثنتين قبل أن أصعد إلى «الترام» الذي مرّ في طريقه بكلية الآداب التي قضيت فيها سنواتى الجامعية الأربع. صحيح أن ذكرياتي قليلة في فترة الجامعة لأنني لم أكن أواظب على الحضور لانشغالي بالعمل، لكن رغم قلة تلك الذكريات ما زلت أجد بداخلي حنيناً إليها.

ترجلت عند آخر محطة لـ«الترام» في منطقة الرمل، ومن هناك أكملت طريقي الذي لم أكن أعرفه سيراً على الأقدام، لذا قررت أن أسال أحد المارّة، لكنه لم يتعرف على ذلك العنوان الذي كتبه لي صديقي داخل ورقة صغيرة، فاستوقفتُ آخر شرح لي الطريق بتفاصيلها، لكن لم يعلق بذهني سوى ما أشار إليه بيده في بداية حديثه قائلاً: «اسلك ذلك الشارع إلى آخره، ومن هناك انعطف يميناً...».

وحينما انعطفتُ يميناً قرّرتُ سؤال آخر، فأشار هو الآخر بيده قائلاً: «هل ترى ذلك الشارع؟ اجتزه لآخره، ثم انعطف يميناً فيساراً، وعندها ستجد إشارة مرور، اسأل هناك». سرتُ كما وصف لي، وحينما وصلتُ إلى إشارة المرور قرّرت سؤال الشرطي الذي ينظم حركة المرور في ذلك الملتقى المروري للعديد من الشوارع المتقاطعة هناك.

أشار لي هو الآخر بيده قائلاً: «ستجدها هناك على اليمين». كانت الساعة تقترب من الثانية والنصف. حينما وصلت كان رجال الأمن على

البوّابة الخارجيه وداخل أسوار الحديقة، يرتدون جميعهم حللاً سوداء كهؤلاء الذين لا نراهم سوى في الأفلام السينمائية. باءت جميع محاولاتي للدخول لتقديم أوراقي بالفشل. أخرجت تذكرة «الأتوبيس» لأريها لأحد رجال الأمن قائلاً له: «لقد جئت لتوي من القاهرة لتقديم أوراقي».

لكنه أجاب: «لقد جئت متأخراً»، وأشار بيده نحو مجموعة من الشباب والفتيات المنتشرين في أرجاء حديقة المبنى قائلاً: «هؤلاء هم آخر من تم السماح لهم بالدخول لتقديم أوراقهم».

وفي محاولة بائسة مني اشتريتُ من مكتبه قريبة مغلّفاً وضعت بداخله أوراقي، وتركتها لرجال الأمن على البوّابة الخارجية. عدتُ وتناسيتُ الأمر، وأصبح أمراً من الماضي، اعتبرته واحداً من تلك المرات الكثيرة التي خرجتُ فيها لتقديم أوراقي والبحث عن عمل.

بعد أقل من أسبوع كنت على متن الطائرة في طريقي لتجربة جديدة، ربما كانت هي عقد تصالحي مع الواقع.

***

سارعتُ في الاتصال بصديقي محمد، لكنه لم يجب على اتصالي. أعدتُ الاتصال به مرة ثانية وثالثة، ومع تأخره في الإجابة على اتصالي ازداد قلقي، وتصاعد خفقان قلبي، إلى أن أجاب في النهاية. لم يكن إلى جوار الهاتف، لذا لم يجبني من المرة الأولى، وبعد أن اطمأن كل منّا على الآخر صمت لثوانٍ معدودة، ترقبتُ خلالها ما سيخبرني به، لكنّه تريّث لبعض الوقت، فتلاعب بأعصابى قبل أن يتحدث قائلاً: «ألن تبارك لي بمولد حبيبة؟». لم تسعفني كلماتى لوصف مقدار فرحتي له بطفلته

الوليدة، رغم علمي بانتظاره مولدها، لكنني كنتُ أعتقد أن الوقت ما زال مبكراً قبل ولوج تلك الصغيرة للحياة، يبدو أنني أخطأتُ في تقدير الوقت، فأول شيء يفقده المغترب هو الإحساس بالزمن حيث يتوقف الوقت نهائياً، فجميع الأيام تمر متشابهة، لا شيء يميّز بينها، يبدو أن حدسي لم يكن في محله هذه المرة، ويبدو أن توقعي بشأن المنحة لم يكن سوى رغبة في داخلي تمنيتها لإنقاذي مما أنا فيه، لكنه قطع عليّ حبل أفكاري قائلاً: «أنا لم أتصل بك لذلك الأمر فقط»، فعاودني الأمل مرة أخرى، قبل أن يصمت للحظة تلاعب خلالها بأعصابي من جديد، وقبل أن يكمل قائلا: «مبروك تم ترشيح كلانا للسفر إلى الولايات المتحدة من أجل المنحة الدراسية، ولكن علينا الخضوع لاختبار المقابلة الشخصية أولاً».

فتساءلتُ فرحاً: «متى؟».

فأجاب: «سيتم الالتقاء بك في الثالث من نوفمبر القادم ـ بينما سيتم الالتقاء بي بعد غد».

«سيتم الالتقاء بك في الثالث من نوفمبر القادم»... ظلّ صداها يتردّد في أذني بعد انتهاء المكالمة. كان تاريخ ذلك اليوم هو العشرين من شهر أكتوبر، أي لم يبقَ سوى ثلاثة عشر يوماً فقط. اختلجتني مجموعة من المشاعر المتضاربة؛ وبين الحيرة والفرح حسمت أمري؛ إنها الفرصة التي انتظرتها طويلاً، كنت قد فقدت الأمل في حدوث أي تغيير يطرأ على حياتي يمكن أن يعيدها إلى المسار الذي خطّطتُ له مسبقاً، بعد أن أجبرتني الظروف ودفعني احتياجي إلى امتهان العمل اليدويّ الشاق منذ سنوات، أياً كانت طبيعته، وهو ما عجزت شهادتي الجامعية عن

تغييره، وحينما قرّرت أن أطير على جناحيّ الغربة أملاً في تغير معاناتي، معتقداً أن أوضاعي ستتغيّر مع سفري، وأن سفري لا بد سيضمن لي فرصة العمل التي أستحقها، لكن أياً مما خططتُ له لم يحدث، ومعاناتي لم تنتهِ، وألقى بي سفري في أحضان حلقة جديدة من حلقات المعاناة.

لم يغيّر سفري مسار حياتي، لم يغيّر سوى عملي فقط. وجدتُ نفسي هذه المرة عاملاً في إحدى المقاهي، في واحدة من المناطق الصناعية وسط العاصمة الأردنية، أحمل صينية زاخرة بمختلف أنواع المشروبات، أدور بها على زبائن المقهى من عمال الورش في تلك المنطقة. ورغم حنقي وغضبي، ورغم صعوبة العمل وقسوة ظروفه، لم يعد بمقدوري هذه المرة أن أتمرد، فأترك العمل، وأبدأ في البحث عن عمل جديد غالباً ما ينتهي بتركي له بعد بعض الوقت، كما كان يحدث في الماضي، وكما يقال للغربة حسابات أخرى، كما أن ذلك العمل، رغم امتعاضي منه، هو فرصتي الوحيدة لسداد تلك الآلاف التي تراكمت عليّ كديون من أثر سفري.

حاولتُ جاهداً تغيير ذلك الأمر. حملتُ أوراقي وجبتُ بها في يوم عطلتي بحثاً عن عمل يتناسب وشهادتي الجامعية. لكن، بالإضافة لكل العقبات التي اعتدتُ عليها، واجهتني عقبة جديدة هي كوني غريباً، والأفضلية في العمل لأبناء البلد، وهو ما لم أستطع لومهم عليه، فإذا كانت بلدي لم تؤمِّن لي عملاً يتناسب وتعليمي الجامعي، فلا يمكن مطالبتي أيّ بلد آخر ليقوم بذلك الدور.

لم يعد أمامي سوى مواصلة حياتي بأيّ طريقة كانت، لكنني لم أستطع احتمال الأمر طويلاً، فسرعان ما تمرّدتُ على عملي بعد بضعة

أسابيع، وتركته، لأنتقل بعدها من عمل لآخر، من محلّ نجارة إلى محلّ دهان إلى ثالث ورابع، المهمّ أنّ هناك أجراً من الدنانير أتسلّمه في نهاية كل أسبوع. صحيح أنه أخذ في الازدياد مع الوقت بإزدياد خبرتي، لكنه لم يستطع تضميد نفسي الجريحة.

أنا هو ذلك التعس «إيكاروس»، ضحيّة المتاهة التي بناها والده «ديدالوس».

«ديدالوس» ذلك البنّاء الماهر الذي بنى متاهته الشهيرة بأمر من الملك «مينوس» لاحتجاز وحش «المينوثور» الخرافي، لكن الملك «مينوس» غضب عليه ليأمر في النهاية بسجنه برفقة ولده داخل المتاهة التي بناها بيديه، ليجد «إيكاروس» نفسه حبيس المتاهة، لا لشيء إلا لجرم وحيد؛ كونه ابن أبيه الذي غضب عليه ذلك الملك. ويعجز «ديدالوس» عن قيادة ابنه «إيكاروس» وإرشاده إلى طريق الخروج من المتاهة، رغم كونه باني هذه المتاهة، ليكتشف في النهاية أن الحل الوحيد للخروج منها هو الطيران بعيداً عنها، فيأمر ابنه «إيكاروس» بجمع ما يجده من الريش، وقام بصنع جناحين وذيل لكل منهما، وثبّت الريش باستخدام الشمع. حذّر «ديدالوس» ابنه «إيكاروس» من الطيران بشكل منخفض حتى لا يفسد الشمع من الرطوبة، كما حذره من الارتفاع كي لا تذيبه حرارة الشمس. قبّل ابنه وطار. لكنّ «إيكاروس» الذي أعجبه الطيران عجز عن حفظ ذلك التوازن بين الانخفاض والارتفاع، فطار مرتفعاً ليسقط في البحر غريقاً.

فرغم أهمية التعليم، وما يمثله من قيمة في الارتقاء بحياة الأمم، انعدم لدينا وجود رؤية واضحة لتطويره، والنتيجة ألوف بالمئات تُضخّ

للجامعة، وأمثالهم يتخرجون منها سنوياً، لتعمّ حالة من الضياع، تنتهى بأحسن هؤلاء الخريجون حالاً بالاستسلام للواقع وتعلُّم حرفة، وكأن ما يحدث أمراً متعمّداً للنيل من غدٍ أفضل لهذه الأمة. وعلى الجانب الآخر أهمل التعليم الفني حتى أضحى أمراً لا يحبّذه الآباء، وشرعوا يحاولون إبعاد أبنائهم عنه لتدني تلك النظرة المجتمعية للمدارس الفنية وخريجيها، رغم كونها الأساس الذي بنى عليه «محمد علي» نهضة مصر الحديثة، وفي بلد العجائب كل شيء ممكن حدوثه، فمئات الألوف من العاملين، قرابة الثمانية ملايين مغترب للعمل في الخارج، وفي الوقت نفسه نضطر، مع العجز عن وجود الأيدي العاملة المدرّبة، لسدّ ذلك العجز باسنخدام أيدٍ عاملة من بلدان أخرى كالصين والفلبين والهند وغيرها.

تلك النظرة المتدنية هي التي ألقت بي، كغيري، في أحضان تعليم جامعي لا يمتّ بأيّ صلة لسوق العمل أو للحياة التي نحياها. متاهة بناها والدي، وألقوا بي في أحضانها بأمر من المسئولين وتحت مرأى ومسمع من الجميع. متاهة ألقوا بي في أحضانها لخمسة عشر عاماً، وفي النهاية يطلب مني أن أتناسى كل شيء، أن أترحّم على آمالي وأحلامي وأن أعايش الواقع وأحافظ على ذلك التوازن بين ما درسته، وإعادة التأهيل في إحدى المهن التي يحتاج إليها سوق العمل، على أن تظل آمالي وأحلامي حبيسة عقلي إلى تلك اللحظة التي ننزل فيها لأرض الواقع، وهو ما لم يحدث مطلقاً، ولكن كيف ذلك؟ كيف يمكنني أن أحافظ على ذلك التوازن؟ كيف أوازن بين عالمين كلاهما على النقيض من

الآخر، والنتيجة: عجزت عن حفظ ذلك التوازن وانتهى بي الأمر غريقاً، أحيى بلا أمل، وحينما طرتُ على جناح الغربة معتقداً أنّ تغيراً قد يطرأ على حياتي، اكتشفت في النهاية أن سفري لم يكن سوى درباً جديداً من دروب تلك المتاهة.

ولكن، لا بد من وجود مسئول عمّا حدث ويحدث معي. لمن سأوجّه أصابع الاتهام؟ من سيعلو مقصلتي؟ والداي! ولماذا؟ لأنهما حلما لي بحياة أفضل من تلك التي عاشاها! ومتى كان الحلم جريمة؟ أم ربما ألقي بالمسئولية على نفسي لأنني صدقتها. أم ربما ألقي مسئوليتي على مسئولين جهلة، رغم أن كثيرين منهم حاصلين على أعلى الدرجات العلمية.

***

هنا، وعند هذه المرحلة، قررت المجازفة بكل شيء. قامرتُ برحلتي التي لم أسدّد أيّ من ديونها المتراكمة عليّ، ناهيك عن مقامرتي بتلك الدنانير القليلة التي ادخرتها طيلة أشهر من الألم والمعاناة.

رحلة طويلة تتعدى الألفي أو الثلاثة آلاف كيلو متر من السفر، كان عليّ أن أقطعها. لم أكن أملك ما يلزم من المال لرحلة العودة بالطائرة، فقررت العودة باستخدام الطريق البرّي. بدأت رحلتي بسبع ساعات جالسًا على كرسي صغير داخل حافلة عامة اكتظت بالمسافرين، حتى أن حقيبتي لم تجد متسعاً تستقر به سوى فوق ركبتيّ. انقضت بضع ساعات لم تتوقف خلالها الحافله قبل أن تصل الميناء في مدينة العقبة بعد قدوم الليل بساعة أو اثنين.

لم تستغرق إجراءات الحجز والحصول على ختم المغادرة سوى دقائق قليلة، لكنّ الباخرة لم تكن قد أكملت بعد رحلتها قدوماً من الشاطئ الآخر للخليج على الحدود المصرية، في رحلتها التي تقطعها مرة واحدة يومياً ذهاباً وإياباً، لأقضي بضع ساعات أخرى ممدّداً فوق إحدى الأرائك بالقرب من رصيف الميناء، متوسداً ذراعي، قبل صعودي لظهر الباخرة بعد انتصاف الليل بقرابة النصف ساعة. كنتُ ساعتها ما زلت أعاني أعراض الحمّى التي أصابتني قبل يومين ولم أبرأ منها كلياً رغم المضادات الحيوية الكثيرة التي ما زلت أتناولها، ولولاها لما استطعت السفر.

على ظهر الباخرة افترشتُ إحدى الأوراق المقوّاة على الأرض، والتحفتُ السماء متوسداً هذه المرة حقيبتي. أسلمت جفنيّ للنوم الذي جافاني من قبل في الميناء، رغم مداعبته لي من آنٍ لآخر، ورغم إرهاقي الشديد.

الخـــوف

الخوف هو ذلك الشعور القاتل الذي رافقني منذ أمد بعيد أبى بعدها أن يفارقني، الخوف من كل شيء، الخوف من الماضي، الحاضر، وأيضاً من المستقبل.

شعورٌ يلازمني في كل الأوقات، حتى في تلك اللحظات التي أشعر فيها بالسعادة، ولكن كيف ذلك؟ لا يلبث الخوف أن يحوط السعادة بالقلق، يعتصرها بين أنيابه حتى تلفظ أنفاسها بين يديه. في البداية، جافاني النوم بعض الوقت، رغم ما أشعر به من إرهاق شديد، ورغم ذلك السكون الذي يخيّم على المكان باستثناء صوت الموج الهادر والباخرة تشق عبابه، وهمهمات بعض المسافرين المتناثرين فوق سطح الباخرة، بعضهم غطّ في نومٍ عميق، بينما انخرط البعض الآخر في أحاديث جانبية للتعارف بقصد التسلية حتى يمر الوقت سريعاً.

استمر الأمر بي على هذه الحالة حتى نسج النوم شباكه حولي، فرحتُ في نوم عميق، لكنني لم أهنأ به كلياً، فقد تخلله مجموعة من الأحلام المتشابكة المتداخلة فيما بينها، أو بالأحرى مجموعة من الكوابيس كانت أقرب ما يكون لشريط سينمائي، يعرض عليّ بعض لحظات من حياتي الماضية،كنتُ قد أسدلت عليها ستائر النسيان منذ أمد بعيد.

كانت أولى الصور التي جاءتني من الماضي تلك الليلة من طفولتي، حين استيقظتُ من نومي فزعاً عندما تخطتني شقيقتي الصغرى في طريقها إلى ردهة المنزل، تبعتُها فزعاً، كان والدي ممدّداً على

الأرض فوق حصير بلاستيكي أسود مزركش بنقوش صفراء والذي يغطي أرضيّة الردهة التي تفصل بين غرف منزلنا الثلاث، ذلك المنزل المكوّن من طابق أرضي وحيد، وحول والدي التفّ عدد كبير من الجيران.

جلستُ إلى اليمين من رأس والدي الممدّد على الأرض، وعلى يساره جلس جارنا الذي يسكن في أوّل الشارع الذي يقع منزلنا في آخره. كان يُسند رأس والدي بيمينه ويرفعه للأعلى، يحاول أن يسقيه بيسراه كوباً من عصير الليمون الذي سارعت إحدى جاراتنا بصنعه، معتقدين أن ما يحدث لوالدي ما هو إلا واحدة من نوبات مرض السكري الذي يعاني منه، رغم أن والدي لم يعاني من تلك الحالة من قبل، لكنّ والدي الممدد على الارض لم يرشف منه سوى رشفة أو اثنتين بلّل بهما شفتيه.

صمت الجميع لثوانٍ معدودة ترقبوا خلالها والدي قبل أن يترامى لأذني همسُ أحدهم في أذن الآخر: «إنها سكرات الموت». لم أفهم وقتها عن أي موت وأي سكرات يتحدثون، ما زلت إلى الآن أسمع صدى صوته وهو يردّد آخر كلمات يلفظها في هذه الحياة: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»، أو ربما أن ما سمعته لم يكن سوى صدى صوتي حينما ردّدت الشهادة مع حركات شفتيه قبل أن يفارق بعدها الحياة.

والدتي أبت أن تسلّم بوفاته وهي تردّد عبارة واحدة: «لم يمت، لا يمكن أن يكون قد توفي، لنأخذه لأقرب مستشفى».

حمل أربعة من الرجال الأقوياء جثمان والدي، مجاراةً لإصرار والدتي. اثنان منهم حملاه من عند قدميه وآخران من أعلى كتفيه،

وساروا به نحو سيارة أحد الجيران. سرتُ خلفهم غير مدرك لما يحدث، لكن ذلك الرجل المسنّ قابلهم عند منتصف الشارع، قبل أن يصلوا إلى السيارة، قائلاً: «الراجل مات وشبع موت، بلاش نبهدله في المستشفيات وإجراءاتها». فعادوا به إلى المنزل، بعد أن أقنعوا والدتي التي خرجت خلفهم أن الطبيب قادم في الطريق.

حينما عادوا به أرقدوه هذه المرة في الغرفة فوق سريره، لكنهم وضعوا رأسه في اتجاه الغرب، كما قاموا بتمزيق قطعة من القماش لقطعتين ربطوا بإحداهما قدميه بعضهما ببعض من أعلى مشط القدم بقليل، بينما قاموا بربط الشريط الآخر حول جسده أسفل السرّة بقليل بعدما بسطوا ذراعيه إلى جوار جسده. التفت أحدهم لوجودي، فمسح بيديه فوق رأسي قبل أن يخرجني من الغرفة، لتكون تلك المرة الأخيرة لي التي أرى فيها وجه والدي. إجابة وحيدة تلقيتها كلما سألت عن والدي: «إنه في السماء عند ربنا».

بعد أقل من ساعة، قدم عمي. قليلة هي المرات التي رأيته فيها طوال تلك السنوات الماضية، فـ«الحياة مشاغل»، بحسب قوله.

كان أول ما فعله حينما دخل علينا أن ترحّم على والدي قائلاً:

- ألله يرحمه ويدخله فسيح جناته كان من عباده الصالحين.

وهنا، استسلمت والدتي لتلك الحقيقة المرة؛ أن زوجها توفي وتركها وحيدة في الحياة مع أطفالها الأربعة الصغار. أطلقت صرخة مدوّية شقّت سكون الليل من حولنا، وراحت تندب والدي، ومع كثرة البكاء والعويل أخذ صوتها في الاختفاء تدريجياً، حتى خيّم عليها الصمت، واكتفت بإيماءة من رأسها تردّ بها على تأبين المعزيين.

اكتظ المنزل بالجيران، ناهيك عن الكثيرين من أقاربنا؛ بعضهم لم

أره مطلقًا من قبل، ومنهم من لم أره سوى مرات قليلة. حالة من الحركة والنشاط دبّت في أرجاء المنزل، وشيئاً فشيئاً بدأ المنزل يخلو علينا، ولم نعد نرى أيّ من هؤلاء الأقارب سوى بالصدفة.

بدأ الخوف يتسلل إليّ، يمتلكني. «أنت رجل البيت، خلّي بالك من والدتك وأخواتك البنات»، تردّدت على مسامعي كثيراً في ذلك اليوم، ولا أنكر أن الأمر راقني في أوله، وحاولتُ ممارسة دوري كرجل البيت الوحيد على شقيقاتي الصغيرات، فكان عليهن أن يستمعن لكلامي، وأن يطعن أوامري، وأن يصبح من حقي التدخّل في أدقّ التفاصيل الشخصية لأيٍّ منهنّ، الأمر الذي خلق ذلك النوع من التناحر بيني وبين ثلاثتهنّ، لكن والدتي لم تكن لتسمح لي بممارسة لعبتي الصبيانية لوقت كبير، لم تكن سوى أمور صبيانية سرعان ما تخلصت منها، وولد بداخلي ذلك الشعور بالمسئولية أو الأحرى الأبوّة، رغم صغر سنّي، ومع أنّ فارق العمر بيني وبين أصغر شقيقاتي لا يتعدى خمس سنوات، لكنني لا أجد مسمّى آخر سوى الأبوّة.

كان قد مر بعض الوقت حينما استيقظت من نومي، فاعتدلت جالساً لا أدري ما الذي أيقظني بالضبط. كان المشهد نفسه الذي تركته من حولي قبل نومي، لم يتغير عليه شيء؛ جموع المسافرين المتناثرة فوق سطح المركب، والأضواء نفسها التي تنبعث بوضوح مع ظلام الليل الدامس من كلا شاطئي خليج العقبة الذي يفصل بين الأراضي المصرية من ناحية، والأردنية من ناحية أخرى، حتى إنني اعتقدت أن المركب لم يتحرك سوى بضعة أميال خارج الميناء.كان الجو قد ازداد برودة. بحثتُ في حقيبتي وأخرجت معطفاً من الصوف تدثرت به فوق ملابسي. كنت

أعاني من دوّار شديد، تمدّدتُ مرة أخرى، وتدريجياً بدأت أطياف الماضي تجذبني من جديد.

***

كانت مسؤولياتي شكلية؛ أقوم بأداء واجب العزاء في المآتم، والمباركة في الأفراح، وغيرها من تلك الأمور الشكلية. لم يعد مكاني في مثل هذه المناسبات بين الصغار في الخارج، بعيداً عن مجالس الكبار، بل أصبح موضعي بين الرجال لكوني أصبحت رجل الأسرة رغم صغر سني. لكنّ هذه المسئوليات سرعان ما تطورت لتتحول من مجرد مسئولية أدبية إلى مسئولية عمودها الفقري هو الجانب المادي. بدأت مدخراتنا القليلة في النفاد، ولم يبقَ سوى معاش والدي، ولكن ما جدواه مع أربعة أبناء في مراحل التعليم المختلفة.

كان الأمر مريعاً لي في بادئ الأمر. ما زلت أذكر تلك المرات الكثيرة التي خرجتُ فيها باحثاً عن عمل ولم أجنِ منها سوى الفشل، مع صغر سني وضآلة حجمي، وبخاصة في المرة الأولى التي خرجت فيها للبحث عن عمل في إجازة نهاية العام، بعدما أنهيت مرحلة التعليم الإعدادي. سافرتُ برفقة أحد أصدقائي نحو الإسكندرية، ثلاثة أيام قضيناها في ضيافتها. كانت تجربة جديدة من نوعها ومثيرة في الوقت نفسه. نبحث عن عمل طوال النهار، ونتسكع في ساعات الليل الأولى على شاطئ البحر، لينتهي بنا الحال بالمبيت عند أحد أبناء قريتنا الذي سبقنا في القدوم، ووفّق في الحصول على عمل في أحد محالّ العصائر. كنا نقضي ما تبقى لنا من الليل بصحبته حيث يسكن في المخزن التابع للمحلّ، حيث يقومون بتخزين أعواد القصب في طابق أرضي نهشت الرطوبة جدرانه المتهالكة، نرتمي ثلاثتنا فوق سرير حديدي صدئ،

كانت مراتبه صفراء متقرّحة من كثرة الإهمال، ناهيك عن أكوام التراب التي تكدّست فوقه. نفرتُ من منظره، لكنّ إرهاقي من رحلة البحث طوال النهار كان أقوى من أن يقاومه نفوري. كانت تلك المرّة الأولى التي أبتعد فيها عن أسرتي، ورغم انشغال بالي عليهم، إلا إنني سرعان ما استغرقتُ في نوم عميق لم أستيقظ منه سوى في ساعات الصباح الأولى لنبدأ البحث من جديد.

لا أذكر بالضبط لماذا لم نوفّق في الحصول على عمل، كما يحدث مع كل أبناء قريتنا والقرى المجاورة الذين يتسرّبون للعمل في المدن الكبرى، أثناء فترة الإجازة الصيفية للمدارس والجامعات، ربما لصغر أعمارنا، أو لأننا لم نبحث بجدّ، أو ربما أردنا أن نعيش تجربة الحرية بعيداً عن قيود الأهل. لكنّ رحلتنا لم تكن لتمتد أكثر من تلك الأيام الثلاثة بعدما أنفقنا الجنيهات العشرين التي كانت بحوزتنا.

ليكن مكسبي الوحيد، الذي خرجت به من رحلتي، تلك الصداقة المتينة التي ربطتني ببحر هذه المدينة، الذي أضحى صديقي منذ هذه اللحظة، رغم أنها لم تكن المرة الأولى التي أزور فيها الإسكندرية وأرى بحرها، فقد سبق لي رؤيته منذ سنوات، حينما جئت إليه مصطافاً في طفولتي، لكنه بدا مختلفاً، رأيت فيه سحراً فريداً لم أعرفه في المرة السابقة، وكثيراً ما كنت أخرج إليه بعد ذلك، في السنوات التالية، حينما عملت في الإسكندرية في فترة الجامعة. كثيرة هي الليالي التي قضيتها على شاطئه، خاصة في ليالي الشتاء الباردة التي تنهمر فيها الأمطار بغزارة، ويكاد يخلو شاطئه من القادمين للاستمتاع بسحره الخلاب، أللهم باستثناء قليلين مثلي، ممن جاءوا للاستمتاع بهدوئه بعيداً عن الصخب والضوضاء التي تعجّ بها شواطئه طوال العام.

***

في الساعات الأخيرة من مساء اليوم الثالث، تسلّلتُ وصديقي داخل إحدى عربات الدرجة الثالثة للقطار، ولُذنا بظلامها من مفتش التذاكر، بعدما أفلسنا وأنفقنا الجنيهات الثلاثة الأخيرة ثمناً للطعام.

رغم مكسبي لتلك الصداقة الجديدة، إلا إن نتاج رحلتي من الفشل في العثور على عمل، ناهيك عن إنفاقي للجنيهات العشرة التي أعطتني والدتي إياها قبل سفري، لم تكن لترضي والدتي، حتى إنني ما تحدّثت عن هذه الصداقة مطلقاً، ورحتُ أقدّم مبرّراتي وحُجج فشلي، لكنني بقيت أتساءل: «هل حقاً خرجنا بحثاً عن عمل، أم إن فكرة الحرية في حد ذاتها هي التي رافقتنا من البدايه ودفعتنا للسفر؟».

استيقظت مرة ثانية.كان الجو شديد البرودة. نظرت في ساعتي، فوجدتها قد تجاوزت الرابعة والنصف صباحاً. انكمشتُ حول نفسي أكثر من ذي قبل، وسلّمتُ جفنيّ للنوم من جديد.

في البداية أزعجني كلام والدتي، ودفعها المستمر لي للبحث عن عمل، وعدم رضاها عن فشلي المتواصل في الحصول على عمل، رغم صغر سني، ورغم أنه لم يكن هناك داعٍ لعملي في تلك الفترة المبكّرة للمساعدة في مصاريف الأسرة. كان بإمكاني أن ألمح، بوضوح، خوفها من تكرار حياة ابن خالتي الأصغر الذي أفسده الدلال الزائد، فتسرّب من التعليم، وعانى الجميع من رعونته، وأصبح عبئاً على الجميع يصعب تحمّله.

لكنّها لم تدرك أنني كنت أحمل بداخلي الهاجس نفسه.كان الخوف يكمن في أعماقي. لطالما أرّقني ذلك الشعور بعدم الأمان، وخوفي من عدم قدرتي على حمل المسئوليات الكثيرة الملقاة على عاتقي. كانت تزداد وحدتي ويستبدّ بي الخوف، خاصة في فترات الإجازة الصيفية، عندما

أبقى وحيداً بعد أن ينخرط كل أصدقائي بالعمل في الحقول، وما زلت أتذكر تلك الجنيهات الثلاثة التي حصلت عليها من أول عمل لي، رغم حنقي على صاحب المقهى الذي لم يقدّر عملي طوال خمس عشرة ساعة سوى بتلك الجنيهات الثلاثة التي أعطاني إياها، ناهيك عن تسريحه لي في نهاية اليوم بحجة أنني لا أصلح للعمل.كنتُ دائم الشكوى من تعثُّري في الحصول على أيّ عمل في فترات الإجازة الصيفية، حتى إن أحد أصدقائي أخبرني في إحدى المرّات إنه سيأتي عليّ يوم أحنُّ فيه لذلك الفراغ المملّ.

بطبيعة الحال، لم أقتنع برأيه، لكنني حين التحقت بالجامعة بعد ذلك، انغمستُ في العمل، وتحمّلتُ مسئولياتي كاملة، وأصبحت بالفعل أحنُّ لذلك الفراغ المملّ، الذي هربت منه فيما مضى، أقضي ساعاتي الاثنتي عشرة في العمل، لأعود بعدها منهمكاً أبحث عن السرير الذي أرتمي بين أحضانه، ولا أتركه سوى مع موعد العمل في اليوم التالي. أصبحت الجامعة هي صلتي الوحيدة التي ربطتني بأحلامي، رغم أنني لم أنتظم في الحضور سوى في فترات الامتحانات. ورغم صعوبة وقسوة تلك الحياة، ورغم الصعوبة في التوفيق بين واجباتي وأحلامي، ورغم المشقّة الكبيرة التي عانيت، لكنها مشقّة ممتعة ،كانت هي الإطار الذي عبرتُ من خلاله لعالم أحلامي.

رغم مرور هذه السنوات، ظلّ بداخلي حنين لتلك الأيام، فقسوتها لا تعني شيئاً أمام حالة الضياع التي شعرتُ بها بعد تخرّجي في الجامعة. فجأة تقطّعت كل الروابط والصلات التي تربطني بأحلامي، فجأة انتهى الغد ولم يبقَ سوى الواقع بكل مرارته. أتنقّل من عمل لآخر،

كورقة شجر ذابلة، يبست واصفر لونها، وسقطت لتتناقلها ريح الشتاء العاتية.

***

مسحتْ عني شمس الصباح الباكر ما تُرك في نفسي من أنواء الليلة الماضية. ما أبدعه من مشهد؛ خروج ذلك القرص الأصفر المذهّب بين سلاسل الجبال المحيطة بالميناء؛ منظر بديع لا يحتاج سوى لفرشاة رسام أو ريشة شاعر.

ورغم أن الباخرة حطّت رحالها إلى جانب رصيف الميناء، مع الدقائق الأولى لشروق شمس ذلك اليوم، إلا إننا كمسافرين على سطح الباخرة، لم يسمح لنا بالمغادرة إلا بعد إفراغ حمولة السفينة كاملة من ركاب وبضائع، حيث أُغلق باب السطح، ليتكدّس جميع المسافرين فوق سطح الباخرة أمام الباب. أحضر لي ذلك الشاب الصعيدي الذي تعرّفت عليه أمس في الميناء إحدى أوراق الكشف الطبي التي ينبغي على المسافرين توقيعها، للتأكد من خلوّنا من الإصابة بأنفلونزا الطيور التي تتكدس المستشفيات بالمصابين بها في مختلف انحاء العالم، كما طلب مني تعبئة بياناته على نموذج مماثل له لعجزه عن القراءة والكتابة. خشيت أن يتم الاشتباه بإصابتي بأنفلونزا الطيور، خاصة أن أعراضها متشابهة بشكل كبير مع الأنفلونزا الموسميّة التي ما زلتُ أعاني أعراضها من ارتفاع درجة الحرارة، ورشح الأنف، ناهيك عن احتقان الحلق.

بدأ الخوف يتسلل إليّ، خشيتُ أن تتسبّب الأنفلونزا في تأخيري عن موعدي، لكنّ ظني خاب حينما أنهيت إجراءات خروجي من الميناء بسهولة ويسر. لم يكن الأمر أكثر من مجرد إجراء روتينى يقتضى تسليم ذلك النموذج الذي قمت بتعبئة بياناته. لم يكن هناك وجود لحالة

التشديد الطبي على كل من المسافرين والقادمين في المطارات والموانئ، كما تدّعي وسائل الإعلام. لم أر أيّ مظهر من مظاهر الحجر الطبي التي تتشدّق وسائل الإعلام في الحديث عن إحكامه. مع خروجي من الميناء قررت إكمال رحلتي مستخدماً وسائل المواصلات العامة، لتحقيق أكبر قدر من الادخار لتلك النقود القليلة التي كانت بحوزتي. ومن «أتوبيس» للنقل العام، إلى حافلة صغيرة داخل القاهرة، لسيارة أجرة، لأخرى، ثالثة، فرابعة، المهمّ أنني بتُّ ليلتي تلك تحت سقف منزلنا برفقة أسرتي الذين مسحتْ عني رؤيتهم مشقّة رحلتي.

***

انقضت الأيام الثلاثة الباقية للمقابلة الشخصية بسرعة كبيرة، ورغم استيقاظي فجراً، مع ارتفاع صوت المؤذّن عبر مئذنة مسجد القرية الوحيد، إلا إن ذلك لم يشفع لي مع صعوبة الحركة المرورية على طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي اثناء سفري نحو القاهرة. بدأ القلق يتسلّل إليّ رغماً عني، فالذهاب إلى القاهرة أصعب بكثير من الخروج منها. مرّت قرابة ثلاثة أرباع الساعة دون أن تتحرك السيارة خطوة واحدة للأمام. كان ما استنتجتاه وقوع حادث تصادم على الطريق، الأمر الذي أكّده لنا أحد سائقي الرافد الآخر للطريق، حينما أخبر السائق عن ذلك الحادث الذي يبعد حوالي كيلو مترين من موقعنا.

باءت كل محاولات السائق للخروج من الزحام بالفشل. حاول التسلل بالسيارة عبر الحيز الترابي المرافق للطريق، لنجد أنفسنا في النهاية وسط طابور طويل من السيارات المتراصّه على شكل ثلاثة صفوف متورِّمة في بعض الأجزاء، يصعب على عين الناظر حصر أولها أو حتى آخرها.

رغم أنني امضيتُ الأيام الثلاثة المنصرمة في ضيافة مكتبتي الصغيرة، ورغم المواضيع الكثيرة التي بحثتُ فيها، إلا إن ذلك لم يخفّف من خوفي المتزايد مع انصرام الدقائق القليلة الباقية على مقابلتي الشخصية، وهو ما كان يلقي بالعبء على محمد، صديقي الذي جاء برفقتي لتقديم أصول أوراقه، بعدما تم تأكيد سفره للمنحة. عشرات المرّات قصّ عليّ فيها أدق تفاصيل مقابلته الشخصية التي اجتازها قبل بضعة أيام، وكلما ازداد توتُّري واستبدّ بي الخوف، كنتُ أرى تلك الابتسامة تتسلل إلى شفتَي صديقي من حالتي، ثم لا تلبث بعدها أن تتسلل لشفتي أنا الآخر.

***

رأيتها في سيارة مجاورة، وهو آخر أمر كان يمكنني توقعه، أن أراها الآن! ما أعظم تدابير القدر! لم أستطع التأكد إذا ما كانت هي أم لا، لم أرَ وجهها بوضوح، فقد تحرّكت السيارة التي كانت تستقلها بضعة أمتار للأمام، قبل أن تلحق بها السيارة التي نستقلها، وتقف بمحاذاتها، وكأن السيارات وسائقيها يتسابقون للخروج من وسط الزحام. دقّقتُ النظر، لكنني لم أستطع حسم الأمر، فقد كانت تنظر في الاتجاه الآخر. حافظتُ على ترقبي لها، واذداد خفقان قلبي. استدارت بوجهها نحوي فجأة. ما أتعس المفاجأة، لم تكن هي، كانت تشبهها بعض الشيء، لكنّها لم تكن هي.

ذلك الحادث البسيط أحيا بداخلي ذكرى المرة الأولى التي رأيتها فيها. أسرتني عيناها من أول نظرة. ما أجملها من ملاك، تسبح في ثوب من الطهر والبراءة. كيف يمكن لنظرة شاردة تجوب أرجاء الشارع، وتنتقل بين وجوه المارّة بلا هدف، أن تُحدث ذلك التغيّر على حياتي؟ ما

زالت نظرتها الأولى تعلق بذهني إلى الآن، ما زلت ألامس ذلك الإحساس الذي تملكني في تلك اللحظة، ومن غير قصد، التقت عيوننا لثوانٍ معدودة توقّف معها الزمن، وكأنّ شمس الصباح قُدِّر لها أن تشرق في سمائي. كيف لم أدرك من قبل أنّ للعين لغة يمكنها أن تتجاوز أيّ كلمات؟ نظرة واحدة يمكنها أن تعبّر بسهولة ويسر عمّا تعجز عنه كل قواميس اللغة.

كنت قد انتقلت بمفردي للسكن مع بعض زملائي الجامعيين، حيث نعمل بجانب الدراسة. وهناك رأيتها لأول مرة .كيف لم يتسنّ لي رؤيتها من قبل؟ رغم أنها تمرّ من أمامي مرات عديدة كل يوم. كانت نظرتها غريبة، حملت الكثير من المعاني التي عجزتُ عن إدراكها في ذلك الوقت، لأدركها لاحقاً؛ الحب، الرجاء، اليأس، وربما الأمل. نظرة واحدة منحتني الحب، الأمان، الطمأنينة، وأيضاً الأمل. صارت هي حافزي في الحياة. تلصّصتُ عليها بعد ذلك، دون أن تدري، وأنا لا أدري أيّ منا كان يتلصّص على الآخر. أراقبها وأترقب قدومها، لكنني لم أكن وحدي من يترقب، كانت عيناها تبحث عني وهي قادمة من بعيد. تيقّنتُ أن الأمر لم يكن شيئاً تخيّلتُهُ، كما صوّرتْ لي نفسي في بعض الأوقات. كلما كانت تلتقي عيوننا أرتبك، وأتصنّع انشغالي بأيّ شيء آخر، إلى أن تمرّ، وأنا في حقيقة الأمر لا يشغلني سواها. أسترق النظر إليها دون أن تدري وأنا أتساءل: «هل ما زالت تنظر نحوي؟ هل ما زالت تبحث عني؟»، لكنّ نفسي تخذلني وتخبرني أن نظرتها مجرّد نظرة عابرة، وربما كانت تلك المرات التي التقت فيها عيوننا مجرد صدفة، وما أدراني أنها كانت تبحث عني؟ أو ربما كان بحثها عني بدافع الفضول ليس أكثر، أو ربما فرحاً بعاشق جديد؛ لا بدّ أنّ صرعى هواها كثيرون.

ومن يمكنه أن يقاوم تلك العيون الساحرة؟ ولكن، ما حيّرني أكثر هي تلك الضحكة التي تملكتها هي وصديقاتها في إحدي المرات، عندما كنت أترقبها وهي قادمة من بعيد، شعرتُ بالحرج الشديد، ولم أجد أمامي مفراً سوى الاختباء حتى مرّت. تحاشيتُ لقاءها. حتى في تلك المرات التي كنت ألتقيها صدفهة،كنتُ أسرع في الاختباء قبل أن تراني، فنشبت بداخلي حمّى معركة حامية الوطيس بين قلبي وعقلي. عقلي يأمرني أن أتجاهلها، أن أنساها، أن أحافظ على كرامتي، ونفسي تساند عقلي تسوّل لي ضحكتها بدافع التشفي، لكنّ قلبي يردّ نافياً، ويخبرني أن ما أعتقده هو مجرّد هواجس وأوهام. تزداد المعركة بداخلي ويشتد حماها دون أن أحسم الأمر. مرّ ما يقارب الشهر دون أن ألتقيها، لكنّ اختبائي واختفائي لم يكونا ليدوما طويلاً، تقابلنا هذه المرة صدفة، فوجئتُ بها أمامي على بعد أمتار قليلة، توقفتُ عن المسير، وأبطأتْ هي خطاها، شعرتُ بها تريد قول شيء، لكنّها تابعت سيرها دون أن تنطق بكلمة واحدة. حملت نظرتها الكثير من الحب الممزوج بالضعف والاستكانة، وكأنها تعتذر عما بدر منها قبل ذلك، لتكون الغلبة في النهاية لقلبي الذي أخبرني أن ضحكتها ما هي إلا فرحٌ بقلبي الذي استجاب أخيراً لنداء قلبها الذي فضحته عيناها، ولكن لم يسعني أن أتأكد من أيّ شيء من ذلك.

لم أقدّم شيئاً لحبي. لم أحصل سوى على نظرات خاطفة أسرقها دون أن يشعر بي أحد، لم تقوَ أيّ منها على تسكين فؤادي. لم أخطُ بحبي أبعد من ذلك. لم أحاول حتى أن أتحدّث إليها، وقد يبدو الأمر غريباً؛ ما زلت إلى الآن أجهل اسمها، ولكن ما جدوى الأسماء؟ أخبرتني نظرتها الكثير، وكأنها ترجوني: «صارحني بحبك، قم بالخطوة الأولى، فقط

الأولى»، لكنني لم أحرّك ساكناً، فدربي وعرٌ طويل، حاضر مرير، وغدٌ أشدّ مرارة. لا أنكر أنني في إحدى المرّات غيّبتُ عقلي واستجبتُ لنداء قلبي الذى اعتصره الشوق، بعد أن تغلّب حبها على كل موانعي، قررتُ مصارحتها بحبي، أياً كانت ردة فعلها. خرجتُ مسرعاً خلفها عندما مرّت من أمامي، لكنها كانت قد اختفت، ذابت وسط جموع المارة في الشارع، وكأن تلك الثواني القليلة التي استغرقتُها في حسم الأمر كانت كفيلة بتضييع الفرصة الوحيدة التي قررت فيها التحدُّث إليها. همتُ كالمجنون أبحث عنها، لكنها كانت قد اختفت، فعدتُ أجرُّ ذيول خيبتي. ورغم إحباطي وحنقي على نفسي، لم امتنُّ لسوء حظي كما امتننت له هذه المرة.

***

لأول مرّة تفتح بداخلي نافذة أمل لذلك الحب، فقط، ومنذ أيام قليلة. هل يمكن أن تكون تلك هي اللحظة المناسبة التي انتظرتها كثيراً، وتشكّكت في قدومها لمولد ذلك الحب؟ هل يمكن أن تكون لحظة تجسيده على أرض الواقع بعيداً عن عالم الخيال؟ هل آن له أخيراً ألا يظلّ حبيس قلبي بعد الآن؟ ما هي إلا ساعات قليلة، بعد اجتيازي المقابلة الشخصية، وتأكيد سفري. ستكون أول من أشاركه فرحتي، سأصارحها بما عجزتُ عن مصارحتها به من قبل، سأصارحها بحبي، سأطلب منها أن تتزوجني، ولم لا؟ وإن كنت سأكتفي بخطبتها لحين عودتي.

بدأت حركة السير في الانبساط شيئاً فشيئاً، إلى أن اجتزنا في طريقنا سيارة نقل البترول التي اصطدمت بأحد أعمدة الإنارة لتفرغ حمولتها على قارعة الطريق، وتشلّ حركة المرور قبل أن تتمكن جهود

رجال الدفاع المدني من إزاحتها عن الطريق. وأخيراً، مع دقات التاسعة صباحاً، وصلنا إلى مشارف القاهرة التي سلبتها الفوضى والزحام رونقها البرّاق. كيف يمكن لمدينة في عراقة القاهرة أن تغوص في محيط من العشوائية تسلل إليها من كل مكان حتى غاصت فيه؟ أين هي تلك المدينة التي غازلتها أقلام الأدباء وتبارت مفردات الشعراء في وصفها، من تلك الموجودة الآن؟

أين تلك المدينة التي كانت مقصداً للرحّالة على مرّ العصور؟ يبدو أنّ تلك المدينة لم يعد لها وجود سوى في كتب التاريخ. أين هي عمارتها الفنية الآسرة للقلوب والعقول من تلك الغابات الإسمنتية الكثيفة التي تبدو وكأنها تستعدّ لاعتصار وهضم من يسكنها، أو الوثوب وإفتراس كل من يمرّ أسفل منها؟ أين هو ذلك السحر الأخّاذ؟ أتراه تآكل مع الزمن، أم إنه مخفيّ تحت طبقة سميكة من الإهمال المتراكم على مرّ عقود؟ تساؤلات كثيرة يموج بها رأسي كلما قدمت إلى القاهرة زائراً. في المرات القليلة التي كنت في ضيافتها، كانت تنتابني حالة من الإنقباض والضيق، تحفّ بي كلما قدمتُ إليها، لا تنفكّ قيودها عني سوى برحيلي عنها.

في منطقة «الدقي»، بعد أن ترجّلنا من «مترو» الأنفاق في محطة توفيق الحكيم، رأيت للقاهرة بعضاً من سحر الماضي الجميل، لكنه جمال عشوائي مشوّه، يفتقر إلى التنظيم والتناسق، ناهيك عن الفوضى والزحام، ومع ذلك كانت الصورة أرحم بكثير من تلك التي رأيتها على مشارف القاهرة.

اجتزنا الشارع إلى الجهة المقابلة بصعوبة بالغة، بعد أن قطعنا نهر الطريق المتدفق بغزازة. لم أشغل بالي بتحديد اتجاهات طريقنا، بعدما

تركتُ هذه المهمة لصديقي الذي يعرف الطريق جيداً. كل ما كان يشغلني هو مستقبلي الذي سيتحدّد بعد دقائق قليلة، اجتزنا في طريقنا ميداناً صغيراً قبل أن نتسلل منه إلى أحد الشوارع الذي يصبّ داخله، سرنا لمنتصف الشارع قبل أن ننعطف يميناً في أحد الشوارع الثانوية المتفرعة منه، لنجد أنفسنا في النهاية أمام ذلك المبنى الأبيض اللون ذي الطوابق الثلاثة.

اجتزنا بسهولة ويسر غرفة الأمن الرابضة في أقصى يسار الحديقة، بعد التأكُّد من هويّاتنا الشخصية، لنتقدّم بعدها عبر ممرّ ضيق يمتدّ بين البوابة الخارجية والباب الرئيسي لذلك المبنى الكبير نسبياً. عندما وصلنا باب المبنى لم يكن محكم الإغلاق، فطرقته طرقة خفيفة قبل أن أدفعه بيدي دفعة قوية فتحته على مصراعيه، قبل أن يغلق من جراء نفسه مرة ثانية. قمتُ بالتعريف بنفسي وكذلك فعل صديقي لموظف الاستقبال الذي استقرّ على بعد مترين من الباب، على يسار الداخل للمبنى، خلف مكتب صغير تناثرت عليه مجموعة من الأوراق، إضافة لهاتف أرضي كان يتلقى منه اتصالاً بين الحين والآخر. في مواجهة الباب جلستُ إلى جوار آخرَيْن فوق أريكة صغيرة بالكاد تتسع لثلاثتنا. لم يكن البهو الصغير لذلك المبنى الكبير نسبياً ليتسع لأثاث، كانت هناك منضدة صغيرة اعتلاها دورقان أحدهما يحتوى على القهوة والآخر على الشاي المعدّين مسبقاً للتناول، بالإضافة إلى مجموعه من الأكواب البلاستيكية، كانا متاحين للجميع، لكن لم يكن لديّ رغبه في تناول أيّ شيء. توجّه صديقي لتلك الردهة الصغيرة المؤدية لذلك السلم الذي يربط بين طوابق المبنى الثلاثة، لتقديم أصول أوراقه لموظّفة جلست بدورها، هي الأخرى، خلف مكتب صغير لا يتفوّق عن سابقه سوى

بأحد أجهزة الكمبيوتر الذي استقرّ فوقه، بينما ظلت باقي أجزاء المبنى مبهمة بالنسبة لي.

كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة وسبع دقائق، أي إنه لم يبقَ سوى ثلاث عشرة دقيقة لتغيير مسار حياتي للأبد. أخيراً ستصبح الحياة سهلة رغدة بالنسبة لي. حملتني أحلامي بعيداً، اجتزت معها كل الحواجز والعقبات، سافرت للمنحة بعد اجتيازي للمقابلة الشخصية بسهولة ويسر، ولم يكن سفري وعودتي بأيسر من مقابلتي الشخصية، وتوالى تحقيقي لأحلامي واحداً تلو الآخر. أخيراً تمكّنتُ من رؤية ذلك الثغر الباسم للحياة بعد أن ضمّتني لصدرها ضمّة منحتني بعدها السعادة الأبدية. لكنّ أحلامي جميعها انهارت مع صوت صلصلة الهاتف الذي نبّهني أنني ما زلت أجلس في موضعي فوق تلك الأريكة أنتظر. أجاب الموظف على الهاتف، لم يقل سوى كلمة واحدة كرّرها عدة مرات: «حاضر... حاضر... حاضر». أشار بعدها بيده نحوي قائلاً:

- اتفضّل، الطابق العلوي الغرفة الثانية على اليسار.

اجتزتُ الردهة الصغيرة المفضية إلى السلّم في خمس خطوات، قبل أن أرتقي بعدها درجات السلّم حلزونيّ الشكل، مخلّفاً دورات المياه عن يميني بالأسفل. صعدتُ للطابق الثاني وواصلتُ سيري نحو الغرفة الثانية إلى اليسار، حيث كانت تلك المرأة الثلاثينية في استقبالي أمام الباب. لم أتبيّن ملامحها بوضوح، لكنني أدركت من وصف صديقي المسبق أنها المندوبة عن القصر الثقافي الأميركي، تقتصر مهمّتها أثناء إجراء المقابلات على اختبار المستوى الثقافي للمتقدِّم.

تحلّقنا حول مائدة اجتماع متوسطة الحجم، سوداء اللون، يغطّي

سطحها لوحٌ زجاجيّ. كانت تلك المائدة السوداء هي كل ما تبيّنته من أثاث الغرفة أمامي. وفي مواجهة الباب جلست سيدتان؛ المرأة التي كانت على يميني سيدة محجّبة في منتصف العقد الخامس من العمر، يتحلّى وجهها بابتسامة رقيقة، استقبلتني بها منذ قدومي وودّعتني بها مع انتهاء المقابلة. منحتني تلك الابتسامة الرقيقة شيئاً من الاطمئنان والسكينة. سكنت بها نفسي الخائفة، وإن لم تنجح في إزالة كامل خوفي من اللقاء. وإلى يسارها جلست السيدة الأخرى، كانت أكبر من الأولى، ربما بعقدين من الزمان، رغم محاولاتها إخفاء ملامح الزمن عليها وتقدّمها في السن سواء باستخدام مساحيق التجميل التي استخدمتها بعناية فائقة، أو السواد الذي خضّبت به شعرها، لكنّ اللون الأبيض، المنبعث عند منبت الشعر، فضح تقدّمها في السن، ناهيك عن تلك التجاعيد التي لم تخفّف من قسوتها عمليات التجميل، وإن كانت تلك الأمور قد أفلحت في إظهارها في عُمْرٍ أقلّ من عمرها الحقيقيّ ربما بعقد كامل من الزمن.

دلّت ملامحها على صرامة بالغة، كانت أسئلتها حادّة صارمة، وكأنها تحاول النيل ممن يجلس أمامها في موضعي، وكشف خبايا نفسه الدفينة.

بينما احتلت العضوة الثالثة ثالث جهات المائدة عن يساري، ليقتصر دورها على استقبالي وتوديعي عند باب الغرفة، دون أن تشارك في اللقاء، مكتفيه بالاستماع ومشاهدة ما دار معي من نقاش، بينما ظلّ رابع جهات المائدة عن يميني فارغاً. كان عليّ أن أثبت جدارتي للمنحة التي وصلت إليها بانطباق شروطها عليّ، كان عليّ أن أمسك دفّة الحوار، أوجّهها إلى تلك النقاط التي أودّ الحديث عنها، وهو ما نجحت

في إنجازه في البداية ببراعة فائقه أذهلتني أنا نفسي. لم أتوقع أن أُبلي ذلك البلاء الحسن، لأكتشف بداخلي ثقة لم أعهدها في نفسي من قبل، ودائماً تشككت في وجودها. عشرون من الشدّ والجذب، الهجوم والدفاع، كان عليّ أن أثبت خلالها استحقاقي للمنحة، وهو ما نجحت في إثباته بشكل كبير، فكانت دفاعاتي واستحكاماتي أقوى من انتظار أمام هجومهم الضاري.

«عرّفنا بنفسك؟ ».كانت تلك هي بداية الحوار.

ومن هو أبرع مني في الحديث عن نفسي؟ وإن حاولت جاهداً ألا أبحر بعيداً عن شواطئ قصتي، لكنّ تيار الحديث بدأ يجرفنا بعيداً للحديث عن أسرتي، والدتي وشقيقاتي، وكل كلمة ينطق بها لساني كانت تثير عندهما تساؤلاً جديداً، استباحت عضوتيّ اللجنة حياتي الشخصية، غاصتا في أرجائها، نقّبتا بين ثناياها، لم تتركا شيئاً في جعبتي دون أن تفرّغا محتواه.

لم يكن باستطاعتي هذه المرة أن ألوذ بالصمت، أو بتلك الإجابات المائعة للتغطية على حالة الارتباك التي تنتابني عندما أتحدّث عن حياتي الشخصية، لم يكن باستطاعتي أن أشعر بالوحدة أو أستسلم لضعفي كالمعتاد.

تلعثمتُ وهربتْ مني الكلمات، جفّ حلقي فجأة، أردتُ أن ألتقط كوب الماء من أمامي وأفرغه في حلقي لأروي به ظمئي، لكنني لم أفعل. صمتُّ لبرهة من الوقت ابتلعتُ خلالها ريقي واستجمعت قوّتي، استرسلت بعدها في الحديث وإن كان على مضض.

أخيراً، انتهى اللقاء بشكل أفضل مما خططتُ له، وخرجتُ بعد أن ودّعتني عضوة اللجنة التي استقبلتني في البداية عند باب الغرفة،

على أن أنتظر اتصالاً يتمّ فيه تأكيد نَيْلي المنحة الدراسية، أو الاعتذار عن عدم نيلي لها. خرجتُ منتشياً بأدائي، وانسحبتُ وصديقي عائدين من حيث أتينا، وكم هو يسير أمر الخروج من القاهرة عن الولوج إليها.

طوال طريق عودتنا لم أكفّ عن الكلام، قصصتُ على صديقي أدقّ تفاصيل اللقاء، وبتُّ وصديقي أكيدين من سفري، لكنني تذكرتُ شيئاً فصمتّ فجأة وشرد ذهني بعيداً، لم يخفَ الأمر على صديقي فسألني عن السبب. كان ما شتت أفكاري موقف حدث أثناء المقابلة؛ فعندما اعتقدتُ أن المقابلة انتهت، خيّم السكون لبضع لحظات أمسكت خلالها إحدى عضوات اللجنة بأوراقي، تفحّصتها جيداً ثم باغتتني قائلة:

- هناك نقطتان عجزتُ عن فهمهما في أوراقك، ذكرت هنا إنك رغبت في الالتحاق بالعمل الصحفي، لماذا عجزت عن تحقيق ذلك الأمر؟

وهنا، أمسكت الأخرى بطرف الحديث قائلة:

- كان من اليسير أن تكتب وتراسل الصحف المختلفة لتنشر ما تكتبه.

ارتسمت إبتسامة خفيفة فوق شفتيّ رغماً عني، خفّفت من حالة التوتر التي كنت أشعر بها.

أردتُ أن أسال عضوتي اللجنة في أيّ بلد تعيشان؟ هل ما تتحدثان عنه يحدث في مصر التي نعرفها؟ أم إنه يحدث في مصر أخرى غير تلك التي نعيش في ثناياها، ومن أين لهم بمعرفة الوجه الحقيقي لمصر الذي نعرفه نحن جيداً، بعيداً عن الأموال الأميركية التي تغدقها الوكالة الأميركية للتنمية الدولية على من تتبناهم من أكاديميين،

تستخدمهم كأدوات للدعاية لسياساتها في مختلف بقاع العالم، لكنني خشيت أن يثير سؤالي ضغينتهما عليّ، فقررت أن أحتفظ بسؤالي لنفسي، وأطرقت قائلاً: «سيدتي أنا أعمل منذ المرحلة الثانوية لفترة دوام تتراوح بين الاثنتي عشرة والست عشرة ساعة يومياً، ولا أنكر أنني لم أحاول أن ألتحق بواحدة من الصحف الإقليمية، لكن الفرصة الوحيدة التي أتيحت لي أن أعمل مراسلاً لصحيفة، كان شرطها أن يكون عملي تطوعاً بلا مقابل، وبالفعل قبلت. لم يهتم أحد بقراءة ما كتبته من مقالات بحجة ان فن المقال هو قمة العمل الصحفي، وعجزت عن التوفيق بين ما أحلم به من العمل كصحفي وبين عملي الذي يساعدني في الوفاء بالتزامي تجاه أسرتي، وكان عليّ أن أختار بين طموحي من ناحية، وبين واجبي من ناحية أخرى، وبالطبع كان اختيارى محسوماً مسبقاً.

لم تعلق عضوتا اللجنة على كلامي، لكن الأولى أكملت قائلة:

- الأمر الآخر المحيّر في أوراقك؛ لماذا اخترت أن يتم إرسالك لدراسة النظام السياحي وتنظيم السفر؟ لماذا لم تتخير أن يتم إرسالك لدراسة فن الطهي بحكم خبرتك في سوق العمل، ألا تجد أن ذلك يتناسب معك أكثر...

لكنني قاطعتها قائلاً:

- سيدتي، لقد قضيتُ خمسة عشر عاماً في أحضان التعليم (إبتدائي، إعدادي، ثانوي وأخيراً جامعي) حتي أوقات فراغي أفنيتها عن آخرها في القراءة وطلب العلم، وبعد كل هذا العناء أتناسى تلك السنوات الخمس عشرة وما شيّدتُ من آمال وأحلام خلالها، وأقبل بمهنة كل ارتباطي بها أن

احتياجي المادي هو ما دفعني إليها؟ أنا لا أريد أن أهدر تلك السنوات، كما لا أمانع في إعادة التأهيل مع سوق العمل، ولكن عليّ أن أستفيد بشكل أو بآخر من دراستي السابقة، ومن هنا كان اختياري لتنظيم السفريات لأنها أكثر الأقسام ارتباطاً بسنواتي الخمس عشرة الماضية.

***

أخيراً تمكّنّا من الخروج من القاهرة، وإن كان الأمر لا يخلو من بعض العراقيل المرورية، لكنها أيسر بكثير من تلك العثرات التي تعلق بداخلها إذا أردت أن تلج إليها.

***

منذ أن خرجنا من البوابة الخارجية لمقر الهيئة المانحة، بدأت أرقب عقارب الساعة، فمن المفترض أن أنتظر اتصالاً لتأكيد سفري من عدمه، وهو ما أخبرتني به عضوة اللجنة لدى توديعها لي عند باب الغرفة، وكان صديقي قد أخبرني بالأمر نفسه مسبقاً، وهو ما بتُّ متأكداً من حدوثه طبقاً لمجريات مقابلتي.

كنت أدرك جيداً أهمية الوقت وما يعنيه تأخُّر الاتصال؛ وهو تضاؤل فرصتي في السفر. لم تغب عقارب الساعة عن ناظري لأكثر من دقائق معدودة. ومع توالي انصرام الثواني والدقائق فالساعات، أخذتْ نفسي المهتاجة توغل في التوتر، ورغم ذلك، لازمني بريق من الأمل لم يلبث أن فارقني كلياً مع انتصاف ليل ذلك اليوم، وإن ظلّ بداخلي رجاء واهٍ.

تملّكني اليأس، واستبدّ بى الخوف من جديد. عجّ رأسي بالكثير من الأسئلة التي عجزتُ عن الإجابة عنها، ولم أجد مهرباً ألوذ به من

نفسي سوى النوم، فهو جنة الهاربين، وإن كانت هواجسي وظنوني لم تتركني للحظة، فرغم عتمة الغرفة، لم يستسلم جسمي للنوم إلا بعد انتصاف الليل بثلاث أو أربع ساعات. ورغم تأخري في النوم، لم أحظَ بنوم هنيىء متواصل، فاستيقظتُ بضع مرات، وكلما استيقظتُ كنتُ أُرغم نفسي على النوم مجدداً. لم أغادر المنزل في الأيام التالية، وبالأحرى لم أغادر غرفتي التي لم أتركها سوى للذهاب إلى الحمّام. لم تنجح كلمات المواساة من الجميع في رأب ذلك الصدع بداخلي. لم يعد لديّ رغبة في لقاء أيّ إنسان. أردت فقط الانفراد بنفسي ومراجعة كل حساباتي من جديد. ومع مرور الأيام، انقطع بداخلي الأمل في أن أتلقى ذلك الاتصال، وإن ظلّ بداخلي الرجاء الواهي نفسه، رغم تيقني من استحالة حدوثه.

تخاريف

البرد يجمّد أوصالي، يتسرّب إليّ عبر الأغطية الكثيرة التي أتدثر بها. أتكوّر حول نفسي، أنكمش في وضعيّة الجنين آملاً أن يمدّني ذلك بالدفء، لكن لا فائدة.

يموج رأسي بالكثير من الأسئلة التي أعجز عن الإجابة عنها، فأصبّ جام غضبي على نفسي، وأسألها: «هل أنت حقاً من أضاع عليّ تلك الفرصة..؟ الفرصة غالباً ما تكون نادرة، لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر، أم أنك بريئة...؟ هل حقاً تعرّضت للظلم؟ هل كنت أستحقها من الأساس، أم أنني...». عشرات الأفكار المتداخلة فيما بينها، ووسط هذه الفوضى العارمة التي تسيطر عليّ، يأتيني صوت ضحكة ساخرة من حالي من أحد أركان الغرفة. ألتفتُ حولي أبحث عن مصدر الصوت، لكنني لا أرى شيئاً، فقرّرت التوجه لإشعال مفتاح الكهرباء لأتمكن من تحديد مصدر الصوت، لكنني أجد نفسي عاجزاً عن الحركة، أحاول من جديد، لكنّ جسدي يرفض الانصياع لإرادتي، لأتأكد في النهاية من عجزى عن التحرك من مكاني.

يظهر أمامي فجأة وسط الغرفة، بجوار أحد طرفيّ السرير، على صورة طيف فأتساءل فزعاً:

- من أنت؟

فيجيب:

- أخبرتك قبل ذلك مرات ومرات، ولكن لا ضير من تكرار

ذلك على مسامعك مرة أخرى، ليتها تكون الأخيرة، أنا هو أنت، أعيش بداخلك، منك وفيك، ألا ترى ذلك التشابه فيما بيننا، لماذا ترفض أن تصدق أنني أنت.

- وماذا تريد؟
- أنا... لا شيء، بل أنت من يريد. أنا هنا للإجابة عن تساؤلاتك تلك، لماذا ترفض أن تسلِّم أنك من اختار تلك النهاية المتوقّعة؟ لم يكن عليك سوى اتباعي ولو مرة واحدة.. واحدة فقط. أمّا الآن فعليك تحمُّل نتيجة أخطائك.
- أيّ أخطاء؟ وأيّ اختيار تقصد؟
- دعك من هذه السذاجة المصطنعة. أنت تفهم مقصدي جيداً. أنت من خالف نصحي منذ البداية، كان بإمكانك أن تكون ضمن الطلبة المبعوثين للدراسة بسهولة...

قاطعته قائلاً:

- أنا لا أفهم منك شيئاً.

وأعرضتُ بوجهي عنه ناظراً إلى الاتجاه الآخر. لكنني فوجئت به أمامي، فتلفتُّ حولي وتساءلتُ في نفسي: «كيف أمكنه أن ينتقل بهذه السهولة؟»، لكنه قاطعني، وكأنه يجيب تساؤلي قائلاً:

- إلى أين تهرب مني؟ ألم أخبرك مسبقاً أن كلانا قدرٌ للآخر، وكيف يمكن لأيّ منّا أن يهرب من قدره؟

لم يلبث بعدها أن انتقل من الحديث بجديّة إلى الحديث بسخرية:

- ما هي الموضوعات التي تحب أن تثيرها عن ثقافة بلدك مع زملائك الأميركان، في حال سفرك؟

ثم لم يلبث أن أجاب نفسه قائلاً:

- أعتقد أنه لكوني مصرياً، فإن أول الموضوعات التي أحب أن أثيرها عن ثقافة بلدي هو ذلك النتاج الحضاري الممتد لعدة آلاف قبل وبعد الميلاد، والذي لا ينازعنا فيه بلد آخر، وهذا النتاج الأثري الممتد في كل أرجاء مصر، بما يجعلها متحفاً مفتوحاً، وأن هذا الشعب الذي خلّف تلك الآثار الخالدة لقادر على استعادة أمجاده من جديد. يجب أن نستفيد من تلك البعثات في النهوض بمصر من جديد لاستعادة ما كان لنا في الماضي من تأثير في مسيرة العطاء لرفاهية البشرية، وهو الدور نفسه الذي لعبته البعثات التي أرسلها محمد علي باشا بعد توليه حكم مصر ١٨٠٥ بما كان لها الأثر في نقل مصر والمنطقة العربية من مرحلة العصور الوسطى إلى العصر الحديث. يجب أن نعمل على إنشاء صناعة وطنية قوية، ونعمل على حمايتها بفرض القوانين اللازمة لذلك حتى تقوى وتصبح قادرة على المنافسة...

أغاظني تهكُّمه، فقاطعته قائلاً: «لماذا تردّد كلماتي بهذه الطريقة الساخرة؟».

- من الجيد أنك اعترفت أن تلك كلماتك. كنت تعلم مسبقاً بإطلاق الهيئة المانحة (الوكالة الأميركية للتنمية الدولية) في تسعينيات القرن الماضي لمبادرة تدشين الديمقراطية*، وإتباعها بورقة «الديمقراطية والحكم»، تلك الورقة التي لم تشتمل على

* المعلومات الواردة عن هذه المبادرة وردت في كتاب «الديمقراطية والدولة في العالم العربي»، تيموسي ميتشل، ترجمة بشير سبيعي، مشروع القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥.

كلمة الديمقراطية أو حتى الإشارة إليها سوى في عنوانها فقط، لتوضّح أن الهدف الحقيقي منها ليس تشجيع الديمقراطية، بل دعم وجود جماعات سياسية داخل الهيئات الحاكمة العربية من هدفها دعم لا عرقلة السياسات الاقتصادية الأمريكية، بهدف إتّباع سياسة السوق الحر، وهو ما يعرف بإعادة التكييف الهيكلي، ما يعني التخلي عن النظم الاقتصادية لستينيات وسبعينيات القرن الماضي المعتمدة على التصنيع الداخلي ودعم وحماية الاقتصاد الوطني، وهو ما يؤدي إلى الركود، وتخفيض قيمة العملة، والقضاء على الصناعة المحلية، وإنجازات الإصلاح الزراعي، ناهيك عمّا يتبع ذلك من تسريح للعمالة، وارتفاع تكاليف المعيشة، رغم أن الولايات المتحدة نفسها اعتمدت في بدايتها على الحماية الواسعة لصناعتها المحلية في القرنين الثامن والتاسع عشر، وما زالت تتّبعه، حتى الآن، في كثير من القطاعات كدعمها لمزارعي القطن، وهو الأمر نفسه الذي اتّبعته دول جنوب شرق آسيا للنهوض.

وقف في مواجهتي مرة واحدة، بعد أن توقّف عن التحرك في أرجاء الغرفة، وأشار نحوي بإبهامه الأيمن وسبابته، قبل أن يشرع في الحديث مرة أخرى:

- رغم علمك بكل ذلك مسبقاً خالفت نصحي لك، وتحدثت على النقيض من ذلك، رغم علمك أن تلك المنحة ما هي إلا واحدة من تلك الطرق التي تستخدمها الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، ذراع وزارة الخارجية الأميركية، لفرض

برنامج التكييف الهيكلي عن طريق استخدام سلاح الترغيب متمثلاً في المعونات من ناحية، أو الترهيب،من ناحية أخرى، لفرض تلك السياسات الهدّامة عن طريق ضغط صندوق النقد الدولي باستخدام سلاح القروض وفوائدها.

صمتَ لثوانٍ معدودة قبل أن يشرع في الحديث من جديد: «لم تكتفِ بذلك، بل هاجمت السياسة الأميركية متمثلة في نظريتيّ نهاية التاريخ وصراع الحضارات، ووصفتَ أربابها بذوي العقول المريضة، رغم علمك أن السياسة الأميركية تدور في رحى هاتين النظريتين. ماذا كنت تنتظر بعد ذلك؟ أن يتم اختيارك... أخبرني أنت متى وفي أيّ عالم يمكن أن يحدث ذلك؟».

لم تلبث صورته أن أخذت في التلاشي، وبدأ صوته في الانحسار شيئاً فشيئاً، إلى أن اختفى. حمدت الله أنني تمكنت من الاستيقاظ من ذلك الكابوس المزعج، ولكن يبدو أنني انتقلت لكابوس آخر لا يقلّ ضراوة عن سابقه. تري هل استأثرت دون غيري من البشر بكوابيس هذه الليلة؟ همهمات كثيرة تنبعث من حولي وصور متقطعة لأفراد كثيرون يلتفون من حولي، تكتظّ بهم الغرفة، بالكاد أميّز بعضهم، لكنّ غرفتي لم تكن يوماً بهذا القدر من الاتساع! من هؤلاء؟ ولماذا يلتفّون حولي؟ بعضهم لم أره منذ سنوات، وكثيرون منهم لم أره مسبقاً. أين أنا؟ نظري يعجز عن إدراك أرجاء غرفتي، يبدو أنه ليس أكثر من مجرد كابوس آخر من كوابيس هذه الليلة، أم تراني ألفظ أنفاسي الأخيرة في هذه الحياة؟ وما ذاك إلا هذيان الموت، أو ربما أكون قد فارقت الحياة بالفعل، أنا لا أريد أن أموت، ما زلت في مقتبل الحياة، أصرخ بأعلى صوتي، لكنّ صوتي يخذلني ويأبى أن يخرج من فمي.

أشعر بالظمأ الشديد لكنني أعجز عن تحريك يدي. شخص ما جرّعني بضع رشفات من الماء. ذلك الكابوس لم يلبث أن انتهى، كل شيء أخذ في التلاشي واختفى؛ ذلك المكان الشاسع، الأشخاص المحيطون بي. وجدتني فجأة ما أزال في غرفتي فوق سريري، وكان هو الآخر ما يزال واقفاً في مكانه، وابتسامة عريضه مُحلّاة بالثقة ترتسم على شفتيه، لم يدم عليّ صمته طويلاً، بادر بالحديث قائلاً:

- إلى أين تحاول الهروب؟ هل تعجز عن الإجابة؟ أم أنك اكتشفت أخيراً أنها الحقيقة المجرّدة من أيّ زيف.

في الحقيقة كنت عاجزاً عن الإجابة عن تلك الصراحة الفظّة التي عرّتني أخيراً أمام نفسي، وبدأ ذلك الجزء بداخلي يستجيب لكلامه. فأتاني صوت آخر فجأة، قبل أن ألتفت إليه من أحد أركان الغرفة قائلاً:

- لا تستمع لغوايته.

ثم تقدّم خطوتين، حتى صار في مواجهة الأول، قبل أن يكمل قائلاً:

- تلك هي رسالته؛ الغواية، لا يتّبع أيّ قيم أو أيّ مبادئ.

فردّ عليه الأول قائلاً:

- أنت هو بليّته الكبرى. أنت من يقف دائماً كحجر عثرة في طريقه. ألم تكن من شجّعه منذ البدايه على تلك الآراء، رغم علمك بأمر تلك الوثيقة التي أصدرتها الهيئة المانحة في تسعينات القرن الماضي. حرّضته على مهاجمة السياسات الأميركيه رغم تحذيراتي المستمرة، ليُستبعد في النهاية، ماذا كنت تنتظر غير ذلك؟

فأجابه الثاني قائلاً:

- أنا لا أنكر ذلك. أنا من شجّعه على ذلك، لكنّ رهاني ورهانه كان على تلك المبادئ السامية التي تمثّلها الديمقراطيه الأميركية؛ الحرية، الديمقراطية، الرأي والرأي الآخر...

لكنّ الأول قاطعه بضحكة مدوّية تردّد صداها في أرجاء الغرفة، قبل أن يكمل قائلاً بسخرية:

- صدّقتَ تلك الدعاية التي يتشدّق بها الإعلام الأميركي، رغم ما حدث من مذابح للهنود الحمر، مروراً بهيروشيما وناجازاكي، والانتهاكات في فيتنام. صدّقت رغم ما حدث ويحدث في أفغانستان والعراق. هل حقاً صدّقتَ ذلك رغم ما تتناقله شاشات الأخبار من جرائم ترتكب في سجن أبو غريب ومعتقل جوانتانامو؟ يا لك من ساذج، أما زلت لا تدرك إلى الآن من هو «مينوس» متاهتك أنت وأمثالك؟

فأجابه الثاني قائلاً:

- ربما يكون قد خسر المنحة، لكنّه لم يخسر نفسه أو مبادئه...

لكن الأول قاطعه من جديد:

- في كل مرة تدفعه للخسارة متذرعاً بالمبادئ والقيم، أي مبادئ وأي قيم تلك التي تتحدث عنها؟ كان بإمكانه أن يجنب نفسه الكثير من الألم والمعاناة من الركض داخل متاهة محاولاً، عبثاً، أن يخرج منها، دون أن يدرك أنه يدور داخل دائرة مفرغة...

ثم التفت نحوي فجأة، موجّهاً حديثه الذي اتخذ نبرة ساخرة، بعد أن تخلص من جديّته مرة أخرى:

- سيدتي، أنا أعمل منذ المرحلة الثانوية لفترة دوام تتراوح بين الاثنتي عشرة والست عشرة ساعة يومياً، كيف يمكنني أن أحقق حلمي، أن أعمل صحفياً في تلك الظروف؟ ولا أنكر أنني لم أحاول الالتحاق بواحدة من الصحف الإقليمية، لكنّ الفرصة الوحيدة التي أتيحت لي أن أعمل مراسلاً لتلك الصحيفة، حتى أن أحداً لم يهتمّ بقراءة ما كتبته من مقالات بحجة أن فنّ المقال هو قمة العمل الصحفيّ! وبشرط أن يكون عملي طوعاً بلا مقابل، وبالفعل قبلت ذلك، لكنني عجزت عن التوفيق بين ذلك العمل الذي طالما تمنّيته وبين عملي الآخر الذي يساعدني في الوفاء بالتزامي تجاه أسرتي، وكان عليّ أن أختار بين طموحي وواجبي، وبالتأكيد كان اختياري محسوماً مسبقاً...

ثم لم يلبث أن احتد صوته: «لماذا لم تبكِ لها أيضاً؟ ربما استعطفتهم دموعك، لماذا لم تذكر الحقيقة كاملة؟ لماذا لم تذكر أن طريقك في العمل الصحفي كان من الممكن أن يكون معبّداً، ليس فقط للعمل بتلك الصحيفة الإقليمية، بل كان بإمكانك الانتقال للصحيفة الأمّ اليوميّة التي تتبعها تلك الصحيفة الإقليمية...

لكنّ الثاني قاطع حديثه:

وما الثمن لذلك؟

فأجابه الأول:

- لا ثمن يذكر، ومن ذا يرفض الانضمام لأحد أكبر الأحزاب المعارضة إن لم يكن أكبرها؟ ليس ذلك فقط، بل في أحد مراكزها المرموقة.

لكنّ الثاني أجابه:

- تقصد منصب فخريّ داخل حزب «كاريكاتيري» يقتصر وجوده على الأوراق فقط؟ ورغم كونه حزباً معارضاً، لكنه يدور في فلك الحزب الحاكم، مثل باقي الأحزاب الموجودة على الساحة، تكتفي بذلك الفتات المتناثر الذي يمنّ به الحزب الحاكم الأوحد عليهم، في سبيل غضّ الطرف عما يقترفه من جرائم في حق كل من يعيش على أرض هذا الوطن، وهو أمر ترفضه أيّ مبادئ وأيّ قيم.

لكنّ الأول تجاهل كلامه، ثم التفت إليّ قائلاً:

- أنت، أخبرني بماذا أفادتك مبادئك وقيمك؟ لاشيء، تعثرت في أحلامك، عشت في عالم خيالي لا يمت بصلة لأرض الواقع. أَفِق من سباتك، نحن لا نعيش في عالم المدينة الفاضلة لأفلاطون، نحن نعيش في أرض الواقع بعيداً عن عالم الخيال، عالم أبطاله الحقيقيون من المردة والشياطين، الغلبة فيه لكل أفّاق يتراقص ببراعة فوق حِبال الحياة دون أن يسقط من فوقها، وأنت وهو ما زلتما تتحدثان بالمبادئ والقيم.

أردت أن أجيبه، لكنّ الثاني سبقني:

- انتهازي.

فأجابه الأول:

- مغفّل.

اشتدّت نبرة الحديث بينهما فجأة، واحتدم الموقف. اقترب أحدهما من الآخر وتناطحا بالرؤوس، وبدا كلاهما يرسل التحذير الأخير

للآخر، وبتّ موقناً أن تراشقهم «الكلامي» لا بد أن ينتهي بالتشابك بالأيدي.

لكنّ ثالثاً ظهر فجأة، وكأنه هو الآخر ظهر من العدم. بإشارة واحدة من يده تراجع كلا المتصارعين خطوة للوراء، وإن حافظ كل منهما على «تكشيرة» وجهه واستعداده للفتك بالآخر في أيّ لحظة. وبدأت أشكّ أن هذا «الثالث» كان موجوداً منذ البداية، يرقبنا من مكان ما. اختلط عليّ الأمر، ازددتُ ارتباكاً، لم أعد أفهم أيّاً مما يحدث حولي، من هؤلاء؟ ومن أين أتوا؟ وكيف لهم أن يستبيحوا حياتي بهذه الطريقة؟ فصرخت في ثلاثتهم بأعلى صوتي: «من أنتم؟».

فأجابني آخرهم ظهوراً:

- نحن هو أنت، نعيش في داخلك، منك وفيك، لا نحيى دونك ولا تحيى دوننا.

لكنني لم أفهم شيئاً من كلامه، زادت إجابته من حيرتي.

الأول التقط طرف الحديث، فقال:

- أنا هو أنت. أنا غرائزك الموروث منها والمكتسب. أنا من كان كلاهما جزءاً مني في الماضي، قبل أن ينفصلا عني. أنا من لا يقيّدني ولا يعوقني أيّ شيء، سواء كان هذا الشيء واقع أو منطق أو حتى أخلاق. أنا من يصطلح على تسميتي الـ (هو).

وبادر الثاني موضِّحاً:

- أما أنا فهو أنت أيضاً. أنا الأكثر تعقلاً، لا يتحكّم في أفعالي سوى الأخلاق والقيم، بعيداً عن كل الأفعال الغرائزي منها والشهواني. أنا الضمير. أنا كل ما اكتسبته وفق المعايير والقيم

الأخلاقية. أنا من يقودك دائماً للمثالية. أنا من يصطلح على تسميتي الـ (أنا الأعلى).

لم يبق سوى ثالثهم ليعرفني بنفسه، لكنه تريّث قليلاً للحظات التقطنا خلالها أنفاسنا قبل أن ينطلق قائلاً:

- أما أنا فهو أنت أيضاً، ولكن في أكثر حالاتك اعتدالاً بين الـ(هو) والـ(أنا الأعلى). أنا من يقوم بإشباع رغباتك متمثلة في الـ(هو)، ولكن بصورة متحضِّرة يقبلها المجتمع ولا يرفضها الـ(أنا الأعلى). دائماً ألعب دور الوسيط بين الـ(هو) والعالم الخارجي، فأتحكم في مطالبه وفق القواعد الاجتماعية، وكل ذلك أقوم به وفق مبدأ الواقع. أنا أمثل الإدراك، التفكير والحكمة. أنا رمّانة الميزان بين الـ(هو) ومعارضة الـ (أنا الأعلى) والعالم الخارجي، الأمر الذي يصل بك لحالة التوازن والاستقرار. أما إن سيطر أحدهما عليك.. فيعني ذلك وصولك لحالة من التشويش وعدم الاستقرار، وهي تلك الحالة التي أنت عليها الآن، وأنت... أنت فقط من يمكنه فضّ ذلك النزاع وحفظ التوازن بين ثلاثتنا.

لكنني في واقع الأمر كنت عاجزاً عن حسم ذلك الصراع المحتدم بداخلي، ولا أعلم متى، وكيف يمكنني حسمه؟ ولمن ستكون الغلبة هذه المرة؟ لرغباتي الجامحة أم لقيمي ومثلي العليا؟ أو ربما تمكنت من الموازنة بينها، ربما كان بإمكاني حسم ذلك الصراع في الماضي، لكنني الآن أعجز عن ذلك، بعد أن اختلط عليّ كل شيء.

***

أخذوا في التلاشي من أمامي تدريجياً، إلى أن اختفوا، وإن كنت ما

زلت أستمع لأصداء أصواتهم تنبعث داخلي. فتحتُ عينيّ ببطء، لكنني عجزت عن إكمال فتحهما بفعل أشعة الشمس المتسلّله عبر النافذة، فسارعتُ لإغلاقهما قبل أن أرفع يدي للأعلى أحتمي بها من أشعة الشمس. كنتُ أستمع لهمهمات كثيرة تنبعث حولي، لم أتبيّن أيّ منها بوضوح سوى: «لقد أفاق... لقد أفاق... حمداً لله على سلامتك».

ثلاثة أيام قضيتها ممدّداً فوق أحد الأسرة فاقداً للوعي في أحد أقسام المستشفى العامّ، أعاني من أعراض الحمّى الشديدة، لم ألبث أن خرجت بعدها، بعد أن زالت عني أعراضها، ثم لم ألبث أن قررت الرحيل، رغم أنني لم أكن قد استعدت كامل عافيتي. حملت حقيبتي متجاهلاً رجاءات الجميع في البقاء، وتمضية العيد بصحبتهم، حيث لم يبقَ على مقدمه سوى أيام قلائل.

حتى هي لم تستطع ردعي عن الرحيل، مع تاكدي أخيراً من حقيقة مشاعرها تجاهي. لم يكن حلماً توهّمته كما اعتقدتُ في البداية، لقد جاءت فعلاً وزارتني في المستشفى، فقد سألتني والدتي عن تلك الفتاه التي جاءت لزيارتي، وكانت قد رحلت حينما ذهبت والدتي لإحضار «ضيافة» لها من كافتيريا المستشفى. ما زلتُ ألامس ذلك الإحساس الذي شعرت به حينما احتضنتْ يدي بين راحتيها. ترى كيف علمت بحالتي لتحضر لرؤيتي؟ يبدو أنها هي الأخرى كانت تتابع أخباري من بعيد. ورغم تأكدي أخيراً من حقيقة مشاعرها لم أكن قادراً على اتخاذ أيّ خطوة نحوها، كنت في حالة من التشوش عجزت معها عن التفكير في أيّ شيء، فقررت الابتعاد تاركاً كل شيء بيد القدر، ليحدّد نهاية قصتي معها في المستقبل.

رحلتُ محاولاً لملمة جراحي. ربما يكون الزمن غير قادر هذه المرة

على رأب ذلك الصدع الموجود بداخلي. كم كنت ساذجاً، كيف خدعتني تلك المعاني البراقة؟حرية، ديمقراطية، الرأي والرأي الآخر، وغيرها من المعاني الكبيرة التي يتشدّق بها الإعلام الأميركي في كل وقت، بمناسبة وبغير مناسبة، ولكن يبدو أنني أدركت أخيراً اقتصار وجود هذه المعاني الكبيرة البراقة داخل ساحات الأفلام، مجرد أفكار لم تخرج عن كونها كلمات ظلت دائماً حبيسة داخل أوراق الكتب، لكنّ الثمن الذي دفعته لإدراك ذلك الأمر كان باهظاً، رأيت أخيراً ذلك الوجه الحقيقي للحياة الذي لم أسلّم يوماً بوجوده.

***

وقفت على سطح «العبّارة» وهي تشق طريقها بعيداً عن اليابسة، لأول مرة لا يراودني الشعور بالحنين للعودة، ولا تفتتني أشواقي وأنا أرحل بعيداً عنها، وأنا لا أدري من منّا يرحل عن الآخر؟ هل أنا من يرحل عن أرض الوطن، أم إنه هو من يرحل عني بعيداً. ورغم ذلك عجزت عن تفسير تلك الدمعة التي جادت بها عينيّ أخيراً، تلك الدمعة التي جاهدتُ كثيراً حتى لا يراها أحد غيري، لكنها رغم ذلك لم تنجح في إطفاء تلك النيران المتقدة بداخلي. وهل حقاً هو القدر المسئول عما حدث معي؟ أم إنها مجرد حُجّة أحتج بها على نفسي للتخلص من إحساسي بالعجز والقهر؟ صحيح أن الهيئة المانحة هي صاحبة الحق الوحيد في اختياري من عدمه، ولكن من حقي أيضاً أن أشعر بالظلم.